نوابغ الفكر العربي

١٤



١٨٤٧ – ١٩٠٦

بقلم عيسى ميخائيل سابا

أكبر عالم لغوى فى العصر الحاضر اتفق له ما لا يتيسر إلا لقليل من اللغويين فى قوة البيان وبراعة الإنشاء .

مصطفى لطفى المنفلوطى



دار المعارف ببيروت

الشيخ ابراهيم اليازجي

نوابغ الفكر العربي

١٤

الشيخ ابراهيم اليازجي

١٨٤٧ — ١٩٠٦

بقلم عيسى ميخائيل سابا

أكبر عالم لغوى فى العصر الحاضر اتفق له ما لا يتيسر إلا لقليل من اللغويين فى قوة البيان وبراعة الإنشاء .

مصطفى لطفى المنفلوطى



دار المعارف ببيروت

الفصل الأول

عصر ابراهيم اليازجي

١ ــ الحركة السياسية

تمخّض عصر الشيخ إبرهيم عن حوادث اضطراب فى طول جبل لبنان وعرضه أواسط القرن التاسع عشر ، كان أهمها واقعة السنة الـ ١٨٦٠ م وقد اندلعت نيرانها بين الدروز والمسيحيين ، بإيعاز من الدولة العثمانية التى أمدت الدروز بالأسلحة ورغبت إليهم أن يقطعوا دابر المسيحيين من البلاد الخاضعة لها ، لبنان وسوريا ، ظنّاً منها أنها بذلك تكف أيدى الدول الأوربية المسيحية عن التدخل فى شؤونها ، لأن أوربا كانت تمد أصابعها إلى شؤون العثمانيين بحجة حماية نصارى الشرق . فأجبرتها الدول الروسية فى مؤتمر باريس على أن تساوى بين رعايا السلطنة قاطبة ، فيما يتعلق بالضرائب والوظائف بدون تمييز فى المذاهب ، وأن ترفع الضيم عن النصارى الذين كانوا يصادفون إهانات متعددة من بعض إخوانهم المسلمين الذين لم ينالوا نصيباً وافراً من العلم والمعرفة وجهلوا كثيراً من نواهى الدين الإسلامى الحنيف الذى أوصى خيراً بأهل الكتاب [١] .

ومن جهة ثانية نرى قبل هذا التاريخ أن الدروز والمسيحيين كانوا متحابين متصافين ولا سيما فى لبنان زمن الأميرين الكبيرين فخر الدين المعنى الثانى وبشير الشهابى الكبير الملقب بأبى سعدى . تشهد بذلك الأحزاب : القيسى واليمنى واليزبكى والجنبلاطى حيث كانت تضم بينها مختلف اللبنانيين من الطائفتين الكريمتين .

---

(١) « مشهد العيان » . طبعة مصر و « مجمع المسرات » . مطبعة الاجتهاد بيروت سنة ١٩٠٨ ص ٣٤ — ٤٧ و « قوافل العروبة ومواكبها » لمحمد جميل بيهم . مطبعة الكشاف بيروت ص ١٣ و « الحملة الكسروانية » ص ٣٥٣ للخورى منصور طنوس الخورى .

وسبق حادثة سنة الستين السنة العامية ١٨٥٤ م ، إذ وقع فى القسم الشمالى من لبنان بعد وفاة الأمير حيدر أبى اللمع حاكمه هيجان العامة ، فثار الفلاحون النصارى على الأمراء والمشايخ والملاكين ، بقيادة رجل بيطرى اسمه شاهين طنوس من ريفون [١] أشعل نار الثورة فى قضاء كسروان ، فلم تلبث أن امتدت إلى المتن ولبنان الشمالى ، فهجم الثوار على الأمراء الموارنة ومشايخهم وسلبوهم أملاكهم ، فجاءت تلك الثورة ضربة على المسيحيين عموماً فأصبحوا عرضة للأخطار والضربات وذلك لفقدان الزعامة بينهم ، ولم تقتصر حوادث سنة الستين المشؤومة على لبنان فحسب ، بل تخطته إلى دمشق ، وواليها يومئذ أحمد باشا الذى أوعز إلى الجند أن يساعدوا الثوار على ذبح المسيحيين عملاً بأوامر الباب العالى [٢] إلا أن الفضيلة لم تفقد أبناءها ، فقد حمى الأمير المبرور المغفور له عبد القادر الجزائرى نحو ألف وخمسمائة نفس فى منازله [٣] فكتب فى تاريخه صفحة مدادها الفخر والذكر الحسن والرحمات تترى على جدثه الطيب .

وبالرغم مما بذله قناصل الدول الأوربية من السعى فى سبيل تهدئة الحال وحقن الدماء ، لم يحرك خورشيد باشا والى بيروت ساكناً ، وكذلك رفيقه أحمد باشا والى دمشق ، فكأن منظر الدماء المسفوحة ، ظلماً وعدواناً ، قد راقهما وأطرب جلالة سلطانهما الرضىّ البال ، المتنعم فى قصره بين الجوارى والقيان والغلمان فى القسطنطينية ، فنقل قناصل الدول الأوربية خبر المجزرة المروعة إلى دولهم ، فقابلت أوربا من أدناها إلى أقصاها الخبر بصيحة الاستفظاع ، وطلب الرأى العام فى فرنسا من حكومته أن تتدخل الأمر حالا بدون إبطاء ، وتهب لنصرة مسيحيي لبنان وسوريا ، وتضع حدا لظلم العثمانيين . وفى أوائل تموز (يوليو) من السنة نفسها اجتمع الأسطول الفرنسى والإنكليزى فى مياه بيروت ، ونزل الجيش الفرنسى إلى البر . وتدارك السلطان ووزيره فؤاد باشا الأمر ، فسبق قواد الفرنسيين إلى دمشق لئلا يدخلوها ويطلقوا أيديهم فى الحكم ، وأمر بإعدام

---

(١) ريفون بلدة اصطياف تقع فى قضاء كسروان وتعلو عن البحر نحو ألف متر اشتهرت ببساتين التفاح والخضراوات .

(٢) الباب العالى : لقب مجلس السلطان العثمانى .

(٣) « مشهد العيان فى حوادث سورية ولبنان » طبعة مصر .

مئة شخص منهم أحمد باشا والى دمشق . ومن ثمّ عقد مؤتمر فى بيروت مؤلف من سفراء دول فرنسا وإنكلترا وروسيا وألمانيا والنمسا وفؤاد باشا وزير السلطان عبد المجيد الثانى ، وبعد مناقشات ومداولات وضعوا نظاماً جديداً للبنان ، أطلقوا عليه اسم «القانون الأساسى» وأقروا جعل لبنان لواء مستقلاً تابعاً للآستانة رأساً ، يتولى رياسته متصرف مسيحى ينصبه سلطان تركيا بعد موافقة دول أوربا على تعيينه ، وقد جرى ذلك فى التاسع من حزيران (يونيو) سنة ١٨٦١ ، وبمقتضى هذا النظام قسم لبنان إلى سبعة أقضية مؤلفة من إحدى وأربعين ناحية ، فيها ٩٥٧ قرية ، أما الأقضية فهى : الشوف ، المتن ، كسروان ، البترون ، الكورة ، جزين وزحلة ، وسلخوا عن متصرفية لبنان المستقلة استقلالاً داخلياً ، وادى التيم والبقاع ومقاطعة صيدا وأخيراً بيروت وصور .

وكانت سن المترجم له يومئذ أربع عشرة سنة ، فيكون قد عاصر من متصرفى جبل لبنان ستة متصرفين هم :

داود باشا الأرمنى ١٨٦١ — ١٨٦٨ م
فرنكو باشا كوسى الحلبى ١٨٦٨ — ١٨٧٣ م
رستم باشا الإيطالى الأصل ١٨٧٣ — ١٨٨٣م
واحه باشا الألبانى ١٨٨٣ — ١٨٩٢م
نعوم باشا الحلبى ١٨٩٢ — ١٩٠٢م
مظفر باشا البولونى [1] ١٩٠٢ — ١٩٠٧ م

٢ — الحركة الاجتماعية

بعد أن استقرت الحياة فى لبنان وسوريا واطمأن الناس إلى أنفسهم بفضل تدخل الدول الأوربية ، انصرفوا إلى الثقافة وكانت تباشيرها قد بدأت زمن الأمير بشير الشهابى الكبير [2] فرأينا اختلافاً يباين عصور آداب اللغة

(١) «موجز تاريخ سوريا» للمطران يوسف الدبس . طبعة المطبعة العمومية المارونية . بيروت سنة ١٩٠٧ و «مختصر تاريخ لبنان» منشورات مكتبة صفير ببيروت ص ١٨٢ — ١٨٧ .

(٢) راجع «نوابغ الفكر العربى» العدد السادس ص ٦ — ٩ . طبع «دار المعارف بمصر»

والأحوال الاجتماعية والسياسية جملة . وذلك لتأثير المدنية الأوربية واتصال الشرق بالغرب ، وتأثير الإرساليات الدينية بما أنشأته من مدارس ومطابع ، كالإرسالية الأميركية والإرسالية اليسوعية وغيرهما ، على أن الحياة العقلية قديما كانت تنمو نمواً داخلياً بما تبدعه قرائح أفراد من الكتاب والشعراء .

وأما فى عصر النهضة فقد توافرت الترجمات وطلعت فى سمائها كواكب الفكر الأوربى فاتجه اتجاهاً جديداً فى اللغة والأدب والفكر ، وكان للمترجم له فضل كبير فى ذلك بما عقده من أبحاث علمية ولغوية وأدبية فقد رفع منار لغة الضاد وأعلى شأنها وألحقها بأرقى اللغات الأوربية فى جميع العلوم العصرية [١] .

وكانت العوامل الأساسية فى بعث النهضة هى الآتية :

١ — إنشاء المدارس الحديثة .
٢ — الطباعة .
٣ — الصحافة .
٤ — روح الحرية الشخصية .
٥ — الجمعيات الأدبية والعلمية .
٦ — المكاتب العمومية .
٧ — المتاحف .
٨ — التمثيل .
٩ — اشتغال الفرنجة بآداب اللغة العربية .

فهذه العوامل كلها قد أثرت فى العقل الشرقى ولا سيما اللبنانى ، وبعثت نهضة لمسنا أثرها فى أدبنا المعاصر ، ولا نكران أن حقبة والد مترجمنا كانت حقبة تقليد [٢] فيها شىء ضئيل جدا من الاتجاه نحو التجدد ، فما إن شب الشيخ إبرهيم عن الطوق حتى عمد إلى ديباجة النثر يلبسها حلة قشيبة فترسم أسلوبه غير

---

(١) انظر المنتخبات و « الموجز فى الأدب العربى وتاريخه » . منشورات مكتبة صفير . بيروت ص ٢٤٣ .

(٢) « نوابغ الفكر العربى » العدد السادس .

واحد من أدباء عصر النهضة ، ولعل جرجى زيدان يوضح لنا هذه الناحية أحسن إيضاح بما ننقل عنه [١] بتصرف قال :

« إن أكثر ما ظهر من علوم اللغة فى العصر الأول من هذه النهضة لا يخرج عما كتب قبله ، وأكثره تلخيص أو شرح أو تعليق على كتب القدماء . وظلت الحال على ذلك فى مصر إلى عهد غير بعيد . أما فى سوريا ، ولا سيما فى لبنان ، فقد حدث فى اللغة وعلومها حركة بين المسيحيين ، وكانوا إلى ذلك العهد قلّما يشتغلون فى اللغة وقل من ألف منهم ، وإذا ألفوا فلا يلتفت إلى تأليفهم ، ولا يوثق بأقوالهم . وكانت المدارس على اختلاف أديانها تعلم العربية فى الكتب القديمة كالأجرومية وابن عقيل والأشمونى والصبان والحريرى ونحوها .

فلما ظهر اليازجى الكبير [٢] فى أواسط القرن الماضى وقد تكاثرت المدارس النصرانية فى بيروت ، قرب الأميركان الشيخ ناصيف منهم وعولوا عليه فى تصحيح مسودات ترجمة التوراة وغيرها ، فألف أرجوزته — نار القرى — واختصرها ولده مترجمنا ، ووضع مقاماته ، مجمع البحرين ، وفصل الخطاب وغيرها ، وأقبل الطلاب على دراستها . . .

ثم ظهر أحمد فارس الشدياق فنظر فى اللغة نظراً تحليلياً ، ووضع كتابه "سرّ الليال فى القلب والإبدال" على نسق جديد سرد فيه الأفعال والأسماء الأكثر تداولاً ورتبها بالنظر إلى التلفظ بها لإيضاح تناسبها وتجانسها لفظاً ومعنى . وألف كتاب "الفارياق أو الساق على الساق" على أسلوب جديد فى اللغة العربية ، وبعد انتشار مذهب النشوء والارتقاء [٣] أصاب علوم اللغة شيء منه فتولد علم الفلسفة اللغوية [٤] وتولد أيضاً علم تاريخ آداب اللغة العربية ، ومداره النظر فى اللغة العربية باعتبار أنها كائن حى قابل للارتقاء بالنمو والدثور » . وانصرف مترجمنا الشيخ إبرهيم إلى النظر فى كتب أبيه واختصارها كما سنبين ذلك قريباً . وقام فى

---

(١) « آداب اللغة العربية » ج ٤ ص ٢٥٥ طبعة دار الهلال بمصر سنة ١٩١٣ .

(٢) هو الشيخ ناصيف اليازجى والد المترجم له .

(٣) نشر فيه مجلدين الدكتور شبلى الشميل وطبعا فى مصر فى مطبعة المقتطف .

(٤) ظهر أول كتاب « الفلسفة اللغوية » سنة ١٨٨٦ فى بيروت لمؤلفه جرجى زيدان ، ثم ألف فى الفلسفة اللغوية الأستاذ جبر ضومط واسم كتابه « الخواطر » .

بيروت وفى لبنان قاطبة نهضة جديدة بفضل البستانيين والأسير واليازجيين والأحدب وغيرهم من رجال العلم والفكر ، وبما بعثه كرنيليوس فانديك [١] من روح علمية فى أفئدة النشء ، فقد عمد إلى ترجمة كتب العلوم ككتاب « النقش فى الحجر » فى سبعة أجزاء ، و « الخلاصة الوافية فى الجغرافية » إلى غير ذلك .

٣ ـ الحركة الفكرية

أقبلت النهضة تتهادى على أجنحة الفكر وحب الاقتداء بالغرب ، والشعر على جموده لم يتغير فيه شىء يذكر ، لأن عوامل المدنية الحديثة ، لم تكن قد انتشرت بعد ، فلم تستنبت فى الأحوال الاجتماعية ما يؤثر فى القرائح والعقول ، أو يتناول أقلام الكتاب ، وقل الأمر نفسه فى النثر ، على أن الشعر سبقه فى النهوض والاتجاهات الجديدة ، فبعد سنة ١٨٦٠ م ترك الناس فى لبنان قراهم ووجهتهم بيروت ، وقدمها كذلك أناس من دمشق وغيرها ، وأقبل الفرنجة مرسلين وتجاراً وبثوا مذاهبهم وتعاليمهم فى المدارس والأسواق ، فدخل الشعر شىء من صبغة المدنية الحديثة والخيالات الشعرية التى تأثرت بها القرائح بوساطة المهاجرة أو مطالعة كتب الفرنجة الشعرية ، أو بما حدث فى مصر ولبنان من مظاهر المدنية وأسباب الحضارة الحديثة.

وتمشت روح الحرية الشخصية فى النفوس بشيوع العلم الطبيعى وغيره ، فكان داعية إلى حل القيود المتوارثة فى الاجتماع والأفكار وفى جملتها القيود الشعرية فتبدلت أساليب نظمها وطرق التصور والأخيلة ، وظهر غير واحد من الشعراء يقلد الأساليب الفرنجية وصفاً وغزلاً وقصة ، فكان لنا عدا الشعر الغنائى ، الشعر التمثيلى والحكمى والقصصى ، ورق شعور الشعراء بتأثير التربية العلمية الحديثة ، فأدركوا من عواطف الإنسان وقواه الشىء الكثير ، وتبين لهم من أسرار

---

(١) فانديك : رجل هولندى الأصل أميركى التبعة أتى لبنان فأحبه واتخذ عاداته وألبسته وبعث نهضة حية فى القلوب .

قلبه ما لم يعرفه القدماء ، وما ذلك إلا من أثر الثقافة التى أخذوا أنفسهم بها ، فتخلصوا من الاستهلال والجناس وأنواعه ، وصاروا إذا نظموا فى غزل أو مدح أو رثاء ، تناولوه رأساً . على أنه بقى قلة من الشعراء المحافظين كانوا يعارضون أساليب القدماء ويتمسكون بطرق النظم فى الجاهلية وما بعدها .

وإنه لمن الخير لنا أن نسمع رأى مترجمنا فى الشعر قال : « معلوم أن الشعر من أعلى طبقات الكلام وأبعدها غاية ، لما يقتضيه من شرف الألفاظ ونباهة المعانى ، وسلامة الذوق والمبالغة فى التنقيح والتهذيب ، فابتذاله على ألسنة غير أهله مما يزرى به ويفسد رونقه ويسقط مزيته ، بل ربما أفضى إلى دفن كثير من جواهره فى صدور أربابه ، لأنه إذا أصبح متداولاً بين أيدى العامة ، وابتذاله من لا يحسنه أنف المجيدون له من انتحاله ، وتجافى كبراء أهل القول عن نزول كنفه » [١] .

أما القول فى النثر فسنبحثه عندما نتكلم عن إنشاء مترجمنا .

---

(١) راجع المنتخبات .

الفصل الثانى

الشيخ ابراهيم اليازجي فى عصره

١ ـ حياته

ولد الشيخ إبرهيم بن ناصيف اليازجى فى بيروت فى الثانى من شهر آذار (مارس) سنة ١٨٤٧م فى بيت هو موئل اللغة والأدب، وتخرج فى مبادئ العلم وأصول اللغة على أبيه ثم قرأ على نفسه ، فنال بجدّه وذكائه الغاية البعيدة ، ونظم الشعر فى ريعان الشباب ، فجاء شعره برهاناً على الإتقان وعلى أنه وَرث الخيال عن أبيه ، فرق أدبه وصفا خاطره وتطايرت شهرته فى جودة النظم [1] ، فاحتكم إليه فريق كبير من الأدباء وورد عليه من رسائل الشعراء الشيء الكثير ، حتى أصبح مجلسه لا يخلو من بحث شعرى أو أدبى ، على أنه رأى فى ذلك ما يشغله عن سواه ، فهجر النظم وعكف على المطالعة ، ودرس الفقه الحنفى على المرحوم الشيخ محيي الدين اليافى أحد مشاهير الأئمة فى ذلك الحين ، فنال منه حظاً وافراً .

وفى السنة ١٨٧٢م عهد إليه تحرير جريدة « النجاح »، فظهر من اقتداره ما بعدت معه شهرته ، وعمد الآباء اليسوعيون يومئذ إلى ترجمة الكتاب المقدس ، فاستعانوا به وفوضوا إليه تنقيح العبارة من حيث الإنشاء والسبك وانتخاب الألفاظ للمعنى المراد ، فكان ذلك سبباً فى درسه اللغة العبرية والسريانية ليلبس عبارة الترجمة المعنى الأصيل بصدق وأمانة .

فصرف فى ذلك الكتاب نحو تسع سنوات يتحرى المعنى ويضع الكلمة اللائقة التى تنطبق على المعنى الصحيح ، فلا يعتورها خلل فكرى أو لفظى .

(١) انظر المنتخبات .

حتى أخرجه بحلة أنيقة على أفضل ما يرجى بلاغة وصوغاً وفصاحة مفردات . ولا سيما العهد القديم الذى أطلقت له اليد فى تنقيحه ، فجاءت ترجمة حسنة الديباجة صافية اللغة ناصعة العبارة .

وكان كلما أرهقه تعب الكتابة والتأليف مال إلى الراحة استجماماً ، فيصرف أوقات فراغه فى الرسم والحفر والموسيقى ، وقيل : إنه كان دون الرابعة عشرة من عمره حين صنع أول تقويم « روزنامة » عربى [١] وقد أولع فى مطلع شبابه بالشعر ثم ما لبث أن انصرف عنه إلى النثر ، فجال فيه جولات موفقة حتى أصبح فيه فارساً من أسبق فرسانه وعلماً من كبار أعلامه ، وسارت له بسطة علم وقدم راسخة فى اللغة بحقيقتها ومجازها ، فبز المتقدمين والمتأخرين فى دراستها وحذقها ، وتبوأ منصة البيان وجلال الأسلوب ، متفرداً بمعرفة أصولها وفروعها واشتقاق كلمها وشواردها وأوابدها ، وصرفها ونحوها وبديعها وبيانها ، وعروضها وقوافيها ، وجزلها وسهلها ، وأحاط بأخلاق العرب وعاداتهم وأنسابهم ووقائعهم وأخبارهم رواية ودراية ، فعنت له صاغرة وأنالته عنانها ، فأركض جواد قلمه فى ميدانها ، فجال وصال وبرع وأبدع ، مستعيناً بتوقد ذهن فطرى وذاكرة مرهفة الشعور ، وعت فاستوعبت حتى صار حجة يعول عليه ، ومرجعاً فى حل عقد اللغة العربية وجلاء مبهماتها ، وهو العارف بموارد الكلام ومصادره ، والبصير بجيده وسفسافه ، والطويل النفس فى بحوثه اللغوية ، البعيد غور الحجة ، فلم يتورع عن أن يحمل حملة عنيفة على كتابات الأقدمين والمحدثين ، فخطأهم وأقام الدليل على سلامة نقده بالحجج القواطع والبينات النواصع ، غير تارك زيادة لمستزيد ، فكان يصوب سهم يراعته إلى تلك الخطيئات أو السقطات عن قاب مملوء بالشجاعة ، غير متوار وراء معاقل المخابىء ، فيصيب المرمى ، ويرسل مباضعه إلى الجراح الوسخة العفنة فيشفى المعضل منها غير عابئ بأنين المتألمين ودمدمة المدعين [٢] .

---

(١) « النفائس » الاحتفال بنقل رفات المرحوم الشيخ إبراهيم اليازجى . بيروت مطبعة النفائس سنة ١٩٠٦ ص ٢٢ .

(٢) « الشدياق واليازجى » للأب أنطونيوس شبلى طبعة بيروت ص ٥ .

٢ ـ مشاركته فى أحوال العصر سياسياً

لم يكن مترجمنا حريصاً على اللغة فحسب بل تناول القومية العربية وعمل فى سبيل إحيائها وإذكاء نارها فى قلوب النشء، وكان يرمى إلى أن يرى البلاد العربية متمتعة باستقلال تام، رافعة عنها النير العثمانى ، يدلنا على ذلك انخراطه فى سلك الجمعية العلمية السورية التى أنشئت فى بيروت سنة ١٨٦٨م فكانت تتلى فى اجتماعاتها قصائد عامرة ومقاطع شعرية مثيرة تتحدث بأمجاد العرب .

وفى أول اجتماعاتها دوّى أوّل صوت للحركة العربية والدعوة إلى القومية ، فكان صوت شيخنا الذى أنشد قصيدة هز بها أوتار القلوب وحركها لتنظر إلى حاضرها ملتفتة إلى الوراء وما كان لها من مجد تليد وعزّ عريق قال فى مطلعها :

تنبهوا واستفيقوا أيهـــا العرب فقد طمى الخطب حتى غاصت الركب [١]

وتجاوب صداها فى البلاد العربية عامة، ثم أتبعها بقصيدة ثانية مطلعها :

دع مجلس الغيـــد الأوانس وهـــوى لواحظهـــا النواعسْ

وقد تطرق فيها إلى العمائم والقلانس والمساجد والكنائس مما حملنا على إغفالها فى المنتخبات ، ومدارها تحريض العرب على السعى للاستقلال متخذاً الجبل الأسود نموذجاً حيا للاستقلال والدفاع عن كيانه وانسلاخه عن الدولة العثمانية [٢]

ومن قراءة القصيدة « دع مجلس الغيد » نرى نفساً ثائرة آلمها ما غشى البلاد من فساد إدارى واجتماعى ، آل إلى موجة سأم وكراهية عصفت بالنفوس فتمنت زوال الحكم العثمانى .

وقد نشرت القصيدتان غفلا من التوقيع ، فاهتمت بهما حكومة الآستانة وبأمثالهما وسعت جاهدة لتعرف الناظم فراح سعيها عصفة ريح [٣]. فمما تقدم نفهم نزعة

---

(١) راجعها فى المنتخبات .

(٢) «العروبة ومواكبها» قوافل ج ٢ لمحمد جميل بيهم – مطبعة الكشاف بيروت ص ١٥ .

(٣) « المختارات السائرة » لأنيس الخورى المقدسى طبع دار العلم للملايين بيروت ص ١٦٣ .

الشيخ العربية وحبه الخالص لها وما كان يجول فى خاطره من ميل شديد إلى استقلال البلاد العربية جملة والتفلت من قيود العثمانيين الذين طغوا و بغوا فأيموا النساء و يتموا الأطفال وأفقروا البلاد ، وعقلوا العقول وهشموا الألباب وساروا بالناس ولا سيما العرب كأنهم سائمة .

وصور مترجمنا حالة البلاد بقوله « وما عداها من مدن سوريا القديمة قد عفاها تقلب الأحوال ، فلم يبقَ منها إلا رسوم وأطلال ، وقامت على أنقاضها الآن قرى حقيرة منتشرة فى هاتيك الربوع الدائرة ، يأوى إليها شراذم من بقايا الأمم الغابرة ، كأنها لم تبق إلا لتشهد بما تجنيه الحروب من الدمار ، وما يحدثه تفريق الكلمة والشقاق من التباب والبوار » [١] .

وما قدمنا هذا إلا لنبين مشاركة الشيخ إبرهيم فى أحوال عصره السياسية ، ومن أحب لغته أحب قومه وسعى إلى رفعتهم و إنهاض شأنهم ، واللغة مفتاح سجن الأمم المغلوبة ، فإذا أضاعت لغتها فكأنها فتحت أبواب سجنها بيدها لتدخله .

٣ ــ أخلاقه وصفاته

كان رحمه الله ربع القامة عصبى المزاج ، حاد الذهن ، ذكى الفؤاد ، سريع الخاطر ، لا يمل مجلسه ، يطرب للنكتة ويضحك ، عفيف النفس ظاهر الأنفة إلى حد الترفع ، شديد الحرص على كرامته ، كثير الإباء ، ولا سيما بما يتعلق بالارتزاق ، يعد مجاملة الناس فى الكسب تملقاً ، ولولا ذلك لعاش فى سعة وبسطة من العيش ، ولكن القناعة كانت من أكبر أسباب سعادته [٢] ولم يرغب قط فى الوظيفة وخدمة الحكومة فقد انتدب فى سنة ١٨٨٢م ليكون قائم مقام على مدينة زحلة فرفض [٣] .

ولقد اشتهر بأدبه الرفيع وخلقه الكريم وفسحة رقعة صدره ، وبرصانته ورزانته ، وضنانته بسمعته وكرامته من التبذل والتسفل ، يترفع عن المهاترة

---

(١) راجع المنتخبات .

(٢) « النفائس » ص ٢٤ .

(٣) « تاريخ المشايخ اليازجيين وأصهارهم » ص ٩٥ .

والمقاذعة والمخاشنة فى مجاهداته ومجادلاته ، يجلّ خصمه إجلاله لنفسه ، وينتقد الخطأ محترماً صاحبه ، متجاوزاً هجر الكلام الداعى إلى التنابذ والتنافر ، والتقاطع والتدابر ، وجرّ المرء إلى هبوط منزلته وإخلاق ديباجة وجهه . ولعل هذين البيتين يدلاننا على مجمل أخلاقه قال :

ليس الوقيعة من شأنى فإن عرضتْ | أعرضتُ عنها بوجه بالحياء نـــدى
إنى أضنّ بعرضى أن يلم به | غيرى فهل أتولى خرقه بيـــدى ؟

٤ــ برّه بأبيه

لقد أثر عن الشيخ مترجمنا أنه كان برًّا بأبيه الشيخ ناصيف مفاخراً بأدبه وعلمه ، يؤلمه أن ينال أحد قلامة ظفر منه ، فقد نظر فى كتبه وأصلح الخطأ منها وقال إنه اختصرها ، وقام على شرح ديوان أبى الطيب المتنبى ونسبه إلى أبيه ، لأنه كان قد بدأه ، فلم يرغب فى أن يجعل الفضل فيه لنفسه بل احترم إرادة والده وقد كان شرع يعلق على شعر أبى الطيب ولم يوءاته القدر لإتمامه ، فنظر فيه ابنه مترجمنا نظرة صادقة وقام على شرحه وتفسير أبياته المستغلقة ، وأتبعه بنقد أدبى لشعر المتنبى أزال عنه الزيف وطهره من أدرانه ، واحتال له بتصويب ما خالف اللغة وأوضاعها بلغة سهلة جامعة مانعة ، وفكر رائق وحجة دامغة ، وبدليل ما تقدم ننقل ما قال فى نهاية الديوان [١] « . . . وكان أبى رحمه الله قد شرع فى تعليق هذا الشرح على هامش نسخة من الديوان بخطه ، كان يثبت فيها ما يعنّ له من تفسير أو إعراب أو شرح بيت تذكرة لنفسه مع ذكر كثير من وقائع النظم وتراجم بعض الممدوحين وغيرهم مما يسنح له فى أثناء مطالعاته ، إلا أنه لم يتقص فى شىء من ذلك ولا تتبع أبيات الديوان على التوالى ، وخصوصاً المواضع المستغلقة التى تدعو إلى إطالة الروية والاستنباط مما لم يرضه كلام الشراح فيه ، فإنه كان يتجاوزها فى الأغلب ، ويترك موضع الكلام فيها مخرجاً على الهامش ،

(١) « العرف الطيب فى شرح ديوان أبى الطيب » . المطبعة الأدبية بيروت ص ٦٢٥ .

كأنه كان ينوي معاودة هذا الشرح والتوفر على إتمامه، ثم لم يفسح له فى الأجل فبقى الشرح على علاته » ويخلص إلى القول أنه أبقى عنوان الشرح باسم أبيه رعاية لكونه هو الواضع الأصيل ، فلم يؤثر أن يتطفل عليه فى نسبة الكتاب وإن تطفل عليه فى التأليف .

ومما يحملنا على إثبات بره بأبيه عدا ما تقدم ، تصديه للردّ على أحمد فارس الشدياق ، وقد خطأ الشيخ ناصيف « والد المترجم » فى عروبة بعض كلمات وردت فى « مجمع البحرين » من أمثال « الفطحل » و « المرابض » ، والناظر فى تلك المناقشة تتجلى له أخلاق الشيخ إبرهيم على صغر سنه وميعة شبابه، وقد كال له الشدياق السباب ونعته بآلم النعوت وأخبث الأوصاف ، فما كانت غضبة الشدياق إلا لتزيد الشيخ إبرهيم حلماً ، ولسان حاله يردد :

يزيد سفاهة وأزيد حلماً ... كعود زاده الإحراق طيبا

وقد ترفع عن مقابلته بالمثل من السباب والشتائم فما أخذته حدّة ولا نزوة [١] .

٥ ـ طعامه وشرابه

قضى الشيخ إبرهيم أعوامه الأخيرة متعففاً بطعامه وشرابه، يتناول فى الصباح طعاماً خفيفاً ، ويعكف على العمل ، حتى إذا جاء الظهر ، تغدى ودخن « الشيشة » ، «الأركيلة » ونام وقت القيلولة ، ثم يقضى بقية النهار فى عمل لا يتعبه ، فيلاعب بعض معارفه بالنرد ، ويصرف ما تبقى من نهاره بالفكاهات ، وفى المساء يقتصر على كوب من اللبن ثم يستأنف العمل إلى ساعة متأخرة من الليل ، وكان لا يكتب إلا واقفاً أمام منضدة عالية [٢] .

---

(١) « الشدياق واليازجى » طبعة بيروت ص ٦ .

(٢) « النفائس » ورواية عيسى إسكندر المعلوف وجرجى نقولا باز والفيكونت دى طرازى .

٦ ــ مواهبه وقرائحه

كان رحمه الله مصوراً متقناً وحفاراً ماهراً ، وله فى الصناعة اليدوية المقام الأول ، والإتقان فى كل عمل يعمله وحركة يأتيها ، فهو متأنق فى قيامه وقعوده وفى كلامه وملبسه ، وفى مشربه وطعامه ، وفى مشيه كما فى شعره ونثره ، فى خطه وتصويره[1] وعلى الجملة فقد كان رجل ثقافة واسعة ، ورجل فنّ وإتقان ، جنوحاً إلى العزلة المثمرة ، حريصاً على كرامة نفسه ، أبياً أنوفاً لا يخلو من كبر وقسوة لاذعة لمن تحرش به على غير حق أو نال منه مغمزاً ، لأنه كان يرى أن قناته لا تغمز لأنه ما كان لينشر ما يكتب إلا بعد روّية وإعمال فكر ، ومراجعة ما يخط قلمه غير مرّة ، وفى سبيل كلمة واحدة كان يدبج مقالة ليوضح معنى تلك الكلمة .

---

(١) المصدر السابق .

الفصل الثالث

جوانبُ ابراهيم اليازجي

١ ـ آثاره

تولى كتابة جريدة « النجاح » لصاحبها يوسف الشلفون سنة ١٨٧٢م وله فيها مقالات رائعة وبحوث مفيدة .

تولى تحرير مجلة « الطبيب » لمنشئها الدكتور جورج بوست الأميركى وساعده الطبيبان بشارة زلزل وخليل سعادة سنة ١٨٨٤م ظهر منها مجلد واحد لسنة كاملة . وله فيها مقالات رائعة منها « الأمالى اللغوية » .

وظهرت باسمه واسم زميله الدكتور بشارة زلزل مجلة البيان سنة ١٨٩٧م سنة واحدة .

أما مجلة « الضياء » التى أنشئت سنة ١٨٩٨ م فقد ظهر منها ثمانية مجلدات وهى منار للآداب العربية والبحوث العلمية والمصطلحات اللغوية وانتقاداته من مثل « لغة الجرائد » وأغلاط المولدين وغيرهما . وله « العرف الطيب فى شرح ديوان أبى الطيب » وهو شرح لديوان المتنبى الذى كان قد بدأه والده الشيخ ناصيف فأتمه وتركه باسم والده احتراماً . طبع فى المطبعة الأدبية بيروت سنة ١٨٨٢م .

واختصر كتابى والده « نار القرى فى شرح جوف الفرا » فى النحو « والجمانة فى شرح الخزانة » فى الصرف ، المطبعة الأدبية بيروت .

واختصر كتاب « الجوهر الفرد » وشرحه بكتاب سماه « مطالع السعد لمطالع الجوهر الفرد » طبع فى المطبعة المخلصية بالحبرين الأحمر والأسود ثم فى مطبعة الآباء اليسوعيين .

وله تنقيح الكتاب المقدس للآباء اليسوعيين .

وتنقيح « تاريخ بابل وأشور » لجميل نخلة المدور .

وتنقيح « كتاب عقود الدرر فى شرح شواهد المختصر » لشاهين عطية .

وتنقيح « دليل الهائم فى صناعة الناثر والناظم » جمعه شاكر البتلونى . بإرشاده وضبطه بالحركات الكاملة وبوبه بأسلوب مدرسى .

وتنقيح « نفح الأزهار فى منتخبات الأشعار » جمعه شاكر البتلونى بإرشاده .

أما كتابه الذى استقل بتأليفه فهو : « نجعة الرائد وشرعة الوارد فى المترادف والمتوارد » [1] فى ألفاظ اللغة العربية وتراكيبها ، وضعه فى ثلاثة أجزاء طبع منه جزءان والثالث لا يزال مخطوطاً .

وله «الفرائد الحسان من قلائد اللسان» لا يزال مخطوطاً فى دير الآباء اليسوعيين فى حريصا لبنان .

و« العقد » ديوان شعر وبعض رسائله المكتوبة بخطه الفارسى الجميل معظمها محفور على الزنك وبعضها بحروف مطبعية ، طبع فى البرازيل .

و « شرح المقامة البدوية » من كتاب مجمع البحرين نشره تلميذه الأستاذ جبران النحاس مطبوعاً فى الإسكندرية سنة ١٩٤٠

و« تنبيهات اليازجى على محيط البستانى » طبع فى مصر سنة ١٩٣٣ .

٢ ـ الشاعر

إن من يطلع على آثار مترجمنا يرى أنه لم يقرض الشعر إلا فى إبان الشباب وميعته، ولم يأخذ به نفسه إلا لماماً، وكان يوليه من الإتقان والعناية ما كان يولى كل أعماله . ولعل انصرافه إلى النثر والتأنق فيه شغله عن الشعر ولولا ذلك لكان له فيه مقام ملحوظ . أولا يرضيك أن تسمع وصفه الخيال :

أما الكرى فسلوا عنه الخيال إذا وارته من ظلمات الليل أستار
يطوف من حولنا حتى يعود وقدْ أصابه من رشاش الدمع آثار

(١) راجع المنتخبات .

أولا يطربك ما قال ليكتب على عود :

وعود صفا الندمان قدماً بظـــله ... وما برحت تصبو إليه المجالسُ
تعشقه طـــير الأراكة أخضراً ... وحن إليه ريشه وهو يابس

إلى غير ذلك مما ننقله فى المنتخبات ، فالناظر فى شعره يتبين له أن هبة الشعر لم تند عنه ، فنظمه يبدو حلواً جميلاً مسبوكاً بلغة أنيقة متخيرة الألفاظ ، فقد جمع بين السهولة والمتانة ، والرقة والجزالة ، والقوة ، فمن قوله فى ساعة دقاقة :

ومحصيـــة أعمارنـــا كلما انقضت ... لنا ساعة دقت لها جرس الحزن
فيابنت هـــذا الدهر سرت مسيره ... فهل أنت دون الناس منه على أمن ؟

ولا أظن إلا أنك واجدالوضوح والسلاسة فيما عرضت عليك من نظمه وما سأعرضه ؛ وله فى الشعر آراء كثيرة ، منها ذلك الذى نشرناه له فى الفصل الأول من هذا الكتاب ، ومنها قوله :

« إن الوزن والتقفية لا يكفيان لصيرورة الكلام شعراً ما لم يكن مستوفياً للشرائط المعنوية ، حتى يكون شعراً بالمعنى قبل أن يكون شعراً باللفظ » وعلى الجملة فإننا نرى أن القريض الذى دعا إليه الشيخ هو الذى يخاطب القلب قبل العقل ، ويرفع النفس إلى انخطافة عقلية تحلق فى سماء الخيال طروبة مرحة ، وتبعث فيها رفعة أخلاق ، أو نزعة قومية ، ومحبة للوطن الذى لا يعتز إلا بنوابغه العباقرة الذين يمشون به قدماً إلى المثل الأعلى خلقاً ومحبة خالصة ، وأنفة تبعد الأبناء عن المفاسد والتفرقة .

٣ ـ الناثر

لعل اتجاه المترجم له إلى النثر كان عن قصد لأنه رأى فى معالجته خيراً لا يوفره الشعر ، فمن قراءة ما اتصل بنا من نثره نرى أسلوبه أسلوب ترسل مسجع فى رسائله ومقدمات كتبه ومقالاته ، وأسلوباً مرسلاً بعيداً كل البعد عن التعقيد

والمعاظلة فى الكلام ، وله فيه استعارات غريبة لم تألفها الآداب العربية ، إلا أنها استعارات جديدة ، كما فى وصف الزهرة [١] وكلها أفادت اللغة وخدمت الأدب ، وعلى الجملة فهو صبور على قلمه ، خبير بمواقع الكلام ، عارف لفصاحته ، فلا يميل إلا إلى الصحيح الفصيح منه ، وما كان قريباً من الفهم ، وإنك لتحس وأنت تقرؤه بجرس ألفاظه ، فجملته مصقولة تطرب الأذن وتجري مع الطبع ، فيرتاح لها الخاطر ، فلا تعقيد ولا خشونة ، وتراه يربط الجمل بعضها ببعضها الآخر ، بعقل راجح ، ومنطق نير رزين راسخ ، فيؤلف جملة فيها تناسق وفيها وضوح وفيها بيان ، وقد رأى الأستاذ فؤاد أفرام البستانى [٢] فى نثره ما دعاه إلى القول : « لا إخال كاتباً عربياً منذ عهد ابن المقفع وبديع الزمان ، أدرك ما أدركه اليازجى من سر اللفظة المفردة فى مجموع الجملة ، ومن سر الجملة فى الفقرة ، ومن سر الفقرة فى المقال ، هى نظرة الفنان الساهر على بناء الكل نتيجة لتساوق الأجزاء » [٣] وقد اختط للنثر خطة جديدة كما ألمعنا فيما تقدم ، وتميز عن معاصريه بأسلوبه الإنشائى الجامع بين المتانة والسهولة ، فضلاً عن صحة العبارة [٤] وقد تأثر به كثير من متأدبى عصرنا الحاضر فحاولوا تقليده ، فاستقام أسلوبه لبعضهم وأخفق بعضهم الآخر .

٤ ــ الصحفى

نشأت الصحافة فى لبنان وعليها طابع من الركاكة كان نهاية المطاف للانحطاط الأدبى فى العصر العثمانى فضلاً عن الأوضاع العامية وألفاظها ، فأنقذها من غثاثة عبارتها رجال أعلام كانوا فى طليعة النهضة ، أمثال أحمد فارس الشدياق والمعلم بطرس البستانى وولده سليم ، وأديب إسحاق ، على أن ذلك النشاط

---

(١) راجع المنتخبات .

(٢) رئيس الجامعة اللبنانية وأديب لبنانى معروف .

(٣) العدد الممتاز من مجلة المسرة سنة ١٩٤٨ .

(٤) « تاريخ آداب اللغة العربية » لجرجى زيدان ج ٤ ص ٢٦٦ .

كان بحاجة قصوى إلى من يسدد الأقلام ويسد الثلمات التى اتسعت فى ما يكتبه الكتاب ، فانبرى له مترجمنا وكان أول ما أخذ نفسه به هو إصلاح لغة الجرائد ، ورأس الكتابة فى جريدة «النجاح» سنة ١٨٧٢م فظهر فيها من اقتداره ما بعدت معه شهرته وتجاوبت أصداؤه فى العالم العربى ، وفى عام ١٨٨٤م ، اتفق مع الدكتور بشارة زلزل والدكتور خليل سعادة فأصدروا مجلة « الطبيب » التى أنشأها الدكتور جورج بوست الجراح المشهور فى عهده ، فنشر فيها مترجمنا المقالات اللغوية والأدبية مما أثبت علو كعبه فى صناعة التحرير والتحبير ، ولم يطل زمن الاتفاق أكثر من عام واحد وتوقفت المجلة المذكورة ، وآنست مبادئ « الماسونية » قلبه فانخرط فى سلك أعضائها وأعجب الناس بجرأته الأدبية ونزوعه إلى المبادىء الحرة والأخذ بكل جديد عن عقل وفهم وإدراك [١] .

وكانت نفسه تتوق إلى الصحافة التى كانت مرهقة بقيود ثقيلة فى العهد العثمانى ، فلم يجد مجالاً لأفكاره وآرائه الحرة ، فترك لبنان ووجهته مصر حيث الآداب العربية وحرية الأقلام تنشد كاتباً مثله . وفى عام ١٨٩٧م ، أصدر بالاشتراك مع الدكتور بشارة زلزل مجلة « البيان » وأعد لها الآلات اللازمة يوم تعريبه على أوربا ، فجاءت المجلة والمطبعة مثالاً للإتقان ، وما لبثت المجلة أن احتجبت وافترق الشريكان [٢] .

وفى سنة ١٨٩٨م استقل الشيخ إبرهيم بإنشاء مجلة « الضياء » التى اشتهرت بفصاحة العبارة ومتانة الأسلوب ، وبقى يصدرها إلى أن حال الداء دون متابعة الكتابة ، فتركها فى نهاية عامها الثامن وهو ينوى العود إليها عند ما يبل من دائه ، وما كان يعلم رحمه الله أنه الداء الأخير ، ففاضت روحه فى «المطرية» من أعمال مصر سنة ١٩٠٦م ونقل رفاته إلى بيروت وأودع جدث الرحمة فى محلة الزيتونة فى مقبرة الروم الكاثوليك فى القبر الذى ضم أباه وأخويه الشيخين حبيباً وخليلا .

---

(١) « النفائس » ص ٢٣ .

(٢) المصدر نفسه ص ٢٤ .

٥ ــ العالم

قلنا إن مترجمنا نشأ على محبة العلم وميل شديد إلى البحث والتنقيب، فانصرف إلى الدرس والمطالعة حتى أصبح دائرة معارف لغوية وعلمية، ظهرت فى الأبحاث والمقالات العلمية التى دبجها يراعه فى مجلته « الضياء » وانتشرت له شهرة واسعة فى طول البلاد وعرضها، واتصلت شهرته ببلاد الغرب فمنحه ملك أسوج ونروج نوطاً فى العلوم، وعين عضواً فى الجمعية الفلكية فى باريس، وأنفرس، والسلفادور، وله مباحثات شهيرة مع الفلكى الفرنسى المشهور فلاماريون، وطبع ما عرضه على الجمعية الفلكية فى باريس فى مجلة أعمالها وفى مجلة « الكوزمس » المشهورة، وذلك مما بعث به إلى المسيو كاميل فلاماريون الفلكى سنة ١٨٩٣م . وقد عربته جريدة الأحوال البيروتية [١] بعنوان « مأثرة علمية وطنية » .

قالت مجلة « الكوزمس » : ونزيد الآن أنه بينما كانت المس كلرك مهتمة بعرض هذه الطريقة كان عين ما خطر لها قد تمثل بفكر عالم عربى من ذوى الشهرة، وقد أثبت ما بدا له من ذلك فى فقرة من رسالة عرضها علينا حضرة أغناطيوس الحمصى وهى هذه : قال اليازجى : « من المعلوم أن الشمس فى اختراقها الفضاء تقطع بنا مسافة ٢٤٠ مليون كيلو متر فى السنة، وهى مسافة تبلغ ما يقرب من أربعة أخماس قطر فلك الأرض . وبما أن الشمس مستمرة الاتجاه فى خط واحد فإن هذه المسافة تزداد فى كل سنة ضعفاً بحيث يمكن على توالى السنين أن تمتد إلى ما لا نهاية له . وإذا كان ذلك أفلا يمكن أن يستخدم فلك الشمس عينه عوض قطر فلك الأرض قاعدة لزوايا أبعاد النجوم ؟ فإن لم يكن ثمة ما يعترض صحة هذا الرأى كان فيه ولا ريب أعظم فائدة لسبر مسافات أبعد الأجرام الغائصة فى أعماق الفضاء » .

---

(١) « الأحوال البيروتية » العدد الصادر فى ١٩ كانون الأول « ديسمبر » سنة ١٨٩٣ .

وذيلت جريدة « الأحوال » على هذه المقالة المطوّلة النفيسة بما عرضه اليازجى على فلاماريون فى ٢٧ تموز (يوليو) سنة ١٨٩٣م قالت : « وهنا لا بأس أن نذكر للقراء أن هذه المسألة تعد من أعلى المسائل الفلكية وأعظمها فائدة بالقياس إلى ما يترتب عليها من النتائج المهمة فى مباحث هذا العلم ، لأن جلّ ما توصل إليه جهد العلماء إلى هذا التاريخ فى قياس أبعاد النجوم لم يتجاوز ثلاثين نجماً من أقربها مسافة إلى العالم الشمسى ، فإذا اعتمدوا هذه الطريقة أمكنهم فى عدة سنوات أن يسبروا أبعاد عدد كبير من النجوم التى هى أبعد من ذلك بمسافات ، وعلى توالى الزمان يتهيأ لهم قياس مسافات أكثر الكواكب المنبثة فى الفضاء » [١] .

وكتب أيضاً فى مختلف أغراض الكيمياء والفيزياء والطبيعيات والطب ، فأظهر فى كل منها اطلاعاً واسعاً ونظراً ثاقباً وفهماً بعيداً لشوارد الأمور ودقائقها ، وقد نبه إلى فوائد علمية كان قد اكتشفها باختباره وانصبابه على المطالعة والبحث وقد رأيت بحثه فى الفلك [٢] مما يشهد له بإلمام واسع لأحدث النظرات لمعارضته لمختلفها ، فأثبتت انقداح ذهنه الثاقب وفهمه الصائب ، وبالإضافة إلى ما تقدم فقد تصدى لمعضلة عجزت دونها قرائح نوابغ الأجيال الغابرة فى الرياضيات وهى تسبيع الدائرة فأتى فيها حلاً يلامس الصواب [٣] .

إن بعض الأدباء ينكر على الشيخ إبرهيم لقب العالم ، لأنه لم ينصرف إلى مختبره ويقضى نهاره فيه وراء مجهره صارفاً لياليه فى مرصده ويخرج باكتشاف جديد ، على أن أولئك المنكرين على الشيخ هذه الصفة لم يقولوا لنا : لمَ أناله ملك أسوج ونروج نوطاً فى العلوم ؟ ولمَ انتدب عضواً فى الجمعية الملكية فى باريس وأنفرس والسلفادور ؟ وهل اطلع على الرسائل المتبادلة بين الشيخ وبين فلاماريون الفلكى الفرنسى الشهير ؟ ويكفى الشيخ شهرة وخلوداً أنه غاص إلى قلب اللغة العربية وحل عقدها وفكّ عقالها وأساس قيادها لدقائق العلم ، فكان

---

(١) « تاريخ المشايخ اليازجيين وأصهارهم » لعيسى اسكندر المعلوف . مطبعة دير المخلص ١٩٤٥ ص ٦٧ — ٦٩ .

(٢) راجع المنتخبات .

(٣) وممن اشتغل فى تسبيع الدائرة وأتى بحل قريب من حل المترجم له الأستاذ هيكل صوايا البتغرينى اللبنانى .

فى طليعة رجال عصره المثقفين ، فقد نقل علوم الغرب ونشرها بين أفراد أبناء العربية ، ووضع مسميات عربية فصيحة للمستحدثات الفرنجية منها البرق والبريد للتلغراف والبوسطة ، والمنطاد للبالون Ballon

وينقل لنا عيسى اسكندر المعلوف [١] أن الشيخ « صرف حياته فى بيروت بين المحابر والأقلام ، بأخلاق دمثة وآداب رفيعة ، زاهداً بدنياه ، حسن المحاضرة والأدب الرائع ، منقطعاً إلى عمله ، مبتعداً عن الظهور ، حتى أنه كان يحمر خجلاً إذا قيل له إنك عالم . وكان يأنف أن يخطو خطوة إلى جرّ مغنم ، فلما أنعم عليه السلطان العثمانى بالوسام المجيدى الثالث تحير وارتبك . ولما عقد مؤتمر العلوم والفنون بعناية الملك أوسكار الثانى ملك أسوج طلبت منه اللجنة مؤلفات والده ومؤلفاته فأرسلها ونال عليها من الملك المذكور وسام العلوم والفنون » .

ألا ليت شعرى لو نال أدباء عصرنا بعض ما ناله الشيخ إبرهيم أما كانوا يشمخون بأنوفهم كبراً ويمشون فى الأرض مرحاً ، ولا يكلمونك إلا من حالق ؟ ألا فليتق الله المتقون ولننصف رجال العلم ، وهم فى قبورهم مرتاحون .

٦ ـ الناقد

عرفنا من الفصول المتقدمة ما اجتمع للشيخ من علم صحيح ونظر ثاقب يرنيه أدق الهفوات فما أخطأ فى معرفة مواطن القبح والجمال ، أضف إلى ذلك كله صراحة علمية بريئة ، تحمله على الجهر بما يراه حقا ، وقد جرى فى نقده مجريين :

١ ـ مجرى نقد المفردات وبعض العرباوات .

٢ ـ مجرى النقد الأدبى لبعض الآثار الأدبية ، شافعاً إياها بشىء من الآراء فى اللغة العربية والأدب [٢] .

أما نقده اللغوى فقد صرف فى سبيله جهداً كبيراً لمسناه فى مجمل مجلاته التى

---

(١) « تاريخ المشايخ اليازجيين وأصهارهم » ص ٦٩ .

(٢) « تاريخ الأدب العربى » للأب حنا الفاخورى طبعة ثانية منقحة سنة ١٩٥٣ ص ١٠٨٣ مطبعة حريصا لبنان .

قام على تدبيجها وتحبيرها ، فانتقد أباه وانتقد نفسه أيضاً ، وما أحرانا أن نميل إلى رأى الأستاذ فؤاد البستانى فنسمعه يقول : « كان واحداً من أولئك اللبنانيين الذين أدركوا أن الحرف يميت وأما الروح فيحيا ، وأن اللغة واسطة للتعبير لا غاية للتبحر ، وأنه مهما سهلت الواسطة ومرنت الأداة تجلى الفكر وبرز فى أروع صفاته . ولعل اليازجى – يعنى مترجمنا – كان أبعدهم مدى فى قدر هذه الحقيقة على تبحر فى اللغة وتعمق فى أصول اشتقاقها ، فسهل عليه أن يمهر النهضة العصرية بأداة صحيحة مرنة لها من التقليد روعة القديم ، ومن الابتكار قشابة الحدوث ، أداة كانت تكون كافية لو أخذ الغير على هذه اللغة بالطريق التى سلكها اليازجى فقربوا التعبير من مجالى الحياة ، إذاً لما أفقنا اليوم بعد مرور نصف قرن على محاولات اليازجى فى بعث اللغة مجارية للعصر ، ونحن نكاد نصارع المشاكل نفسها حتى إذا قصر بنا التعبير تأففنا وقلنا : رحم الله الشيخ إبرهيم اليازجى »[١] .

وأجمل ما نرى عنده من نقد أدبى تذييله لديوان المتنبى [٢] ، فقد حاول فيه أن يظهر علاقة التعبير بالمعنى فى شعر المتنبى فقال : « وما أرى هذا الكلام منه إلا صدى للمشهور وحكاية المتداول ، وإنما سبق السماع فيه الاختبار وغلب التقليد على صادق الاعتبار ، وإلا فليس ما ذكره من دقة معانيه واختراعها هو العلة فى خفاء تلك المعانى بدليل أنك متى شرحت معنى البيت بما هو أبين من لفظه ، وبعبارة أخرى متى صورته باللفظ الذى حقه أن يصور به ذهب خفاؤه ومهما كان دقيقاً ، وأشربه الفهم على غير كلفة ولا عناء . والمعانى الشعرية ليست من قبيل الأسرار الصوفية والقضايا العلمية التى تقتضى دقة نظر وجهد ذهن فى تفهمها ، وإنما هى معان طبيعية تدركها البداهة بأدنى رمز [٣] ، ونراه فى شرحه لأبى الطيب قد عارض آراء النقاد القدماء فى تأويل بعض الأبيات العسرة الفهم وتتبع أخطاءهم ، من ذلك قوله فى معنى البيت :

وهب الملامة فى اللذاذة كالكرى مطرودةً بسهاده وبكائه

---

(١) المصدر نفسه ص ١٠٨٤ .

(٢) راجع المنتخبات .

(٣) تذييل « العرف الطيب فى شرح ديوان أبى الطيب » للشيخ ناصيف اليازجى ، المطبعة الأدبية بيروت ص ٦٥٤ .

« وهو من مشكل الأبيات التى تتحير فى تأويلها أحلام المفسرين وتضلّ فى تركيبها بصائر المعربين . وقد أوغل شراح الديوان – أى ديوان المتنبى – فى الغوص على معناه فلم يصدروا عنه بغناء ، وركبوا فيه متن التصحيح فنزل بهم على أكتاف الخفاء . قال الواحدى رحمه الله ، قال ابن جنى [١] يقول : « اجعل ملامتك إياه فى التذاذ ها كالنوم فى لذاذته ، فاطردها عنه بما عنده من السهاد والبكاء ، أى لا تجمع عليه اللوم والسهاد والبكاء ، أى فكما أن السهاد والبكاء قد أزالا كراه فلتزل ملامتك إياه » .ورد عليه الواحدى وقال: « وهذا كلام من لم يفهم المعنى فظن زوال الكرى من العاشق وليس كما ظن ولكنه يقول للعاذل : هب أنك تستلذ الملامة كما تستلذ النوم وهو مطرود عنك بسهاد العاشق وبكائه فكذلك دع الملام فإنه ليس بألذ من النوم ، فإن جاز أن لا تنام ، جاز أن لا تعذل » .

ولا يحط بنا المطاف هنا بل نسير مع الشيخ فنرى كلفه باللغة العربية التى كلف بها وأحبها حباً جماً وانكب على تفهمها تفهماً رياضياً بفكر نير ورأى صائب ، فاستوعب ما فى المعاجم والآثار الأدبية وما خلفه غير واحد من أساطين اللغة والأدب الأقدمين من الأبحاث ، فتغلغل فى مطاوى عبقرية اللغة ، استجلى منها ما لم يسجل لأحد سواه ، فتفتحت بين يديه بكنوزها وأسرارها ، فتصدى لكلام العرب الأقحاح جاهليين وإسلاميين وقدماء ومحدثين ، وقوم من اعوجاج أخطائهم . وحمل حملة صادقة على ناشرى « لسان العرب » [٢] « وتاج العروس » [٣] وأشار إلى ما وقع فى ذينك المعجمين من الخطأ الفاضح ، فأرجعه إلى الصواب ، وعارض أيضاً الواضعين وذهب فى تبصره دقائق اللغة إلى أبعد مما ذهبا هما أنفسهما إليه .

ولم يقف الشيخ عند هذا الحد بل تخطاه إلى درس معانى الألفاظ وتراكيبها الأصلية ، وعلاقة أصوات الحروف بالمعانى التى ترمز إليها ، وثنائية الألفاظ وطرائق تفرعها ، مع ما يطرأ على الأصل من قلب وإبدال ، كما أنه بحث فى نشأة

---

(١) الواحدى أحد شراح ديوان المتنبى . وابن جنى أحد علماء اللغة وله كتاب « الخصائص » .

(٢) هو معجم مطول ألفه ابن منظور توفى فى حدود سنة ١٣١١ م .

(٣) تأليف الإمام محب الدين أبو الفيض السيد محمد مرتضى الحسنى الواسطى توفى سنة ١٧٩١ م

اللغة وقد ماشاها حتى بلغ بها إلى عصره . فوقف يستقرى ما يعترضها من معضلات جسام ، ويجدّ فى تذليل ما اعتورها من تلك المعضلات ليحفظها من خطر الهدم والاضمحلال ، ويجعلها فى مستوى سائر اللغات الحية ، كما يتضح ذلك من قراءة المنتخبات التى نثبتها فى آخر هذا الكتاب .

والناظر فى مجلدات « الضياء » يرى تلك المقالات الضافية التى عالج بها ما أشرنا إليه ، فنشر أمثالا من المستحدثات التى وضعها للدلالة على معانى ألفاظ أعجمية ، واصطلح على وضع علامات لمخارج الأصوات التى لا وجود لها فى العربية ليسهل على المترجمين الترجمة وكتابة الأعلام الفرنجية فى اللغة العربية .

وذكر لى الأستاذ عيسى إسكندر المعلوف أنه وضع معجماً لغويا بدأه سنة ١٨٧٠ م وسماه « الفرائد الحسان فى قلائد اللسان » ثم وقف عن متابعة تأليفه فى أثناء تنقيحه الكتاب المقدس ، فعاد إليه سنة ١٨٨١م بإيعاز مجلة « المقتطف » لوضع معجم مدرسى حديث ، فحال دون إتمامه ازدحام الأعمال وتسارع المنية .

٧ ــ شهادة رجال عصره فيه

وإليك شهادة كبار أدباء عصره له ، وأول ما نبدأ به كلمة المرحوم الشيخ مصطفى لطفى المنفلوطى قال : « هو أكبر عالم لغوى فى العصر الحاضر ، واتفق له ما لا يتيسر إلا لقليل من اللغويين من قوة البيان وبراعة الإنشاء ، فهو فخر سوريا خاصة والعرب عامة ، ولو أن الله أبقاه للغة العربية لنالت فوق ما نالت على يده خيراً كثيراً »[١] وقال الدكتور شبلى الشميل العالم : « فضل الشيخ إبرهيم فى علوم اللغة وآدابها لا ينكر ، وإنما فضله الأكبر فى نظرى هو وضع حروف الطباعة ، فقد عمل لذلك عدة أجناس ، ومعظم الحروف الخارجة من معمل سركيس[٢] فى بيروت والمسماة باسمه والمنتشرة كثيراً فى المطابع العربية والأقطار

(١) « النفائس » ص ٢٦ .

(٢) هو المرحوم خليل سركيس صاحب جريدة « لسان الحال » ومؤسس المطبعة الأدبية ومسبك الحروف فى بيروت .

السورية والمصرية والأميركانية هى من صنعه . . . وكان من المحافظين فى أمور اللغة فلا يحب أن يكثر فيها الدخيل من الألفاظ الأجنبية ، وكان يعانى مشقات كثيرة لوضع ألفاظ جديدة للمعانى العربية وكان يوفق إلى ذلك غالباً . غير أن مسلكه هذا كمسلك المحافظين قبله وبعده حتى اليوم لا يعد بالحقيقة حرصاً على اللغة بل هو تضييق لدائرتها ، وهو فى العلم اليوم يعد تشريداً لكثرة المستنبطات الجديدة ، ووجوب وضع أسماء لها ، ولصعوبة إدراك مدلولاتها حينئذ فى اللغات المختلفة ، والمقتبسون لا يعدون من أصحاب البدع فقد جرى على ذلك أسلافهم فى الطب والعلم حتى العلوم الأدبية نفسها » [١] .

وقال تلميذه شاعر القطرين خليل مطران : « راعنى الشيخ بكمال سيرته ورجاحة عقله وسعة معارفه وإحاطة خبرته بالناس ، فلزمته لزوم المتأدب والمريد زمناً طويلاً ، ولا أبالغ بقولى إنه إذا كان الإنسان فى ظاهره وباطنه لا يخلو من العيوب ، فقد كان الشيخ من أقل الناس عيوباً ، بل أقول ولا أبالى عاقبة التصريح على سمته ، إن كل ما تمنيت على الله أن يزيده فى مناقبه ومحامده هو خلة العفو ، فقد كان منتقماً لشرفه وشرف بيته ، ينتقم مدافعاً لا مبادئاً ، وإذا ضرب ضرب بتوءدة وتبصر ، ناظراً إلى المقاتل ، وقلما تصدى لخصم إلا تركه صريعاً جريحاً جرحاً مشفياً ، على أنه لم ينبر لأحد إلا عن عدل وحق » [٢] ويخلص شاعر القطرين إلى القول : « إن للشيخ مذهباً عاماً فى الشعر والنثر وسائر ما يتولاه وهو مذهب الإتقان ، لا يخلق جديداً ولكنه يتقن ما يصنعه إلى حد أنك تعزوه إليه وتعرفه بطباعه ، فلم ينظم مرتجلا ولم يكتب إلا محتفلاً ، وكان التحقيق فيه خلة لم تبلغ من باحث أو عالم مبلغها منه » .

هذه هى شهادة بعض رجال الأدب العربى فى الشيخ إبرهيم اليازجى ، وما قالوا فيه إلا بالذى قد علموه ورأوه منه مرأى العين ، وإذا كانت هذه شهادة الأهل — وهم ممن ليسوا على الشهادة بمتهمين — فإن شهادة الأجانب تحمل من الدلالة على الفضل والبعد عن التحيز ما يزكى شهادة القبيل والعشير . ولا نجد هنا أصدق ولا أدل على الحق من شهادة العالم المستشرق الإنجليزى الكبير

---

(١) « النفائس » ص ٢٦ .

(٢) المصدر نفسه ص ٢٨ .

مرجوليوث أستاذ اللغة العربية فى جامعة أكسفورد ، فقد كان مهتما بطبع كتاب « معجم الأدباء » لياقوت الحموى ، وكان يدفع تجارب الطبع إلى علماء من العرب ليعاودوها بالنظر ويراجعوها بالفكر ، وكان فيمن دفعت إليهم التجارب المترجم له ، فكتب عنه المستشرق فى مقدمة للطبعة الأولى يقول : « وقد تولى قراءة النماذج "البروفات" علماء ثقات ، وحجج أثبات ، لا يسع الناشر غير الاعتراف بصنيعهم ، والإقرار بفضلهم ، وجليل خدمتهم ، فقد راجع نحو نصف الكتاب حضرة الشيخ إبرهيم اليازجى ، لعلمه الواسع ، ونظره المدقق ، وقد كانت وفاته فى ديسمبر الماضى — مصاب علماء العربية وطلاب دراستها فى الشرق بأسره ، ورددت أكثر صحف القاهرة ومجلاتها منعاه ، وأفاضت فى التنويه بمناقبه ، وتقدير فضله ومواهبه » .

فقد دلتنا هذه الشهادة — على ما بها من إيجاز — على أن الشيخ إبرهيم كان صاحب علم واسع ونظر مدقق ؛ كما كان مجيئها عقب منعاه دليلا على عظم المصاب فيه ، وكثرة الخسارة بموته ، مما جعل الصحف والمجلات تفيض فى الإشادة بمناقبه ، وتقدير مواهبه .

ونتبع هذه الشهادة بأخرى أدلى بها العلامة يوحنا ورتبات فى الحفل الذى أقيم ببيروت فى ١٣ مارس سنة ١٩٠٧م لتأبين الفقيد ، فقد انتدب العلامة لرياسة الحفل ، فقام نائب عنه يتلو كلمته التى يقول فيها : « لم يكن لى معرفة كبيرة أو علاقة شديدة بالمرحوم الشيخ إبرهيم اليازجى الذى أقمتم لذكره هذا المأتم ، غير أن كل ما رأيته فيه أو سمعته عنه ، وقرأت مما كتبه يؤدى إلى اليقين أنه كان من كبار العلماء باللغة العربية وآدابها ، شاعراً مجيداً ، وكاتباً بليغاً . وأنه كان من أهل الفضل العظيم فى رفعة النفس ، وسلامة النية ، وطهارة الحياة . وكان — على ما بلغنى — مستغنياً عن الناس يختار عيشة البساطة والقناعة والفقر ، لا يطلب ولا يرضى مساعدة أحد ، وإن مسرات حياته لم تكن فيما تطلبه العامة بل فى ما يجده العالم فى عالم العقل ، أى فى الدرس والتفكر والكتابة ، فهو جدير حقا بهذه الذكرى التى الإكرام فيها له ولكم أيضاً » .

٨ – منزلته فى عصره

من مجمل ما قدمنا نرى أن عظمة الشيخ ما قامت إلا على أنه صاحب رسالة آمن بها ، فوهب لها حياته بصدق وأمانة وإخلاص ، وآثر أن يعيش عيش الكفاف ضارباً كشحاً عن زخرف الدنيا والمصانعة ، غير ملتفت إلى مال أو غنى أو منصب أو جاه ، وقد حرص كل الحرص على إنجاز تلك الرسالة ، باذلاً فى سبيلها راحته وصحته ، وقد هزىء بما اعتراه من داء وضعف وهزال ، ولولا ما بذله من جهد وقدمه من تضحيات لما تهيأ لنهضتنا هذه وما سبقها من افترار ثغر وطريق معبد قام على تذليل صعابه بنفسه منفرداً معتصما بالصبر ، يسهر الجفن وراء شاردة ، فما تند عنه ، ويحيى النهار ناشراً وكاتباً ومعلماً ، فسهل حروف الطباعة وتخرج عليه أساتذة أعلام بثوا روح التقدم والعلم والمعرفة أمثال : نقلا وعبد الله البستانى وخليل مطران وغيرهم كثير ، ومن لم يتتلمذ عليه حيا تتلمذ عليه ميتاً بما اختصره من كتب أبيه وبما نشره فى مجلاته ، وكفى أنه سار بالصحافة سيراً رفيعاً مطمئناً صادقاً ، فرفع قدر اللغة بعد انحطاط بإنشاء لبق لا يعتوره ركاكة ولا يتخلله تعقيد ، فكان فى طليعة الذين أسسوا النهضة ومشوا بها إلى الأمام ، وقد ترسم خطاه غير واحد من الكتاب والعلماء والشعراء .

وهو وإن لم يترك لنا آثاراً قلمية جمة فقد ترك لنا مصباحاً نستضىء به ونسلك الجدد فنأمن العثار ، فقد ألقى فى روعنا محبة البحث والتحقيق والتدقيق ، والحرص على لغتنا التى رفع منارها وأعلى شأنها وألحقها بأرقى اللغات الأوربية فى جميع العلوم العصرية ، فنبه الكتاب إلى وجوب انتقاء الكلمات العربية المحض وانتقد خطأهم اللغوى انتقاداً عنيفاً ، وانتقى كثيراً من الألفاظ الاصطلاحية للمخترعات الحديثة كالسارى لقضيب الصاعقة ، والمنطاد للبالون ، والبرق والبريد للتلغراف والبوسطة ، والبطاقة للكارت ، والجريدة للجورنال ، وما إلى غير ذلك من الألفاظ الجارية على ألسنة كثير من الأدباء .

إلى هنا نمسك القلم سائلين لمترجمنا الرحمة كفء إحسانه لنهضتنا ، وتدريبنا

على سلوك النهج القويم فى المحافظة على أساليب العربية ، وقد غرس حبها فى صميمنا ، وعرفنا إلى رجال أعلام من أئمتها بفضل اصطناعه أمهات الحروف للمطابع التى توافرت لها مادة الطبع ، فأعطتنا من تراث الماضى ما كان مدفوناً فى الخزائن رهن الأرَضَة .

فعسى أن تكون دراستى هذه دافعاً يدفع المطالع الأديب إلى دراسة العربية دراسة صحيحة وافية لا تشينها رطانة ولا تعتورها ركاكة ، ويرى الفائدة المرجوة من المختارات النثرية والشعرية ، فأكون قد وفيت قسطاً ولو ضئيلاً من الوفاء لشيخنا وإمامنا إبرهيم بن ناصيف اليازجى ، ولا ريب أن فضله على اللغة العربية وأبنائها جم ، وعلى بعث النهضة عميم ، وعلى إحياء القومية العربية فى صميم الأفئدة عظيم .

الفصل الرابع

منتخبات من آثار ابراهيم اليازجي

١ – إبرهيم اليازجي الشاعر

ا – فى المدح

السماك الأعزل

قال يمدح صبحى باشا أحد وزراء الدولة العثمانية :

هٰذا وزيرُ المُلكِ ذو الشَّرَفِ الذى ... أَزْرَى الثريَّا والسِّماكَ الْأَعزَلا [١]

أَمْضَى من السَّهْمِ المذلَّق نظرةً ... فى كلِّ معظمةٍ وأفتَكُ مَقْتَلا [٢]

وأَسَدُّ مَنْ عَرَكَ الأمورَ تصرُّفاً ... فى حينِ لا يجدُ اللَّبيبُ مُعَوَّلا [٣]

وَلِىَ البلادَ فكانَ فيها عَدْلُه ... ظِلاًّ وكانَ الأَمْنُ فيها مَنْهلا

أَبَدًا يُراعيها بطَرْفٍ ساهرٍ ... حَلَفَ الحِفاظُ عليهِ أنْ لا يَغفُلا

فَصْلُ الخِطاب إذا قضَى وإذا انبرَى ... يحكى بهِمَّتِه القَضاء المُنزَلا

وإذا يفوهُ تأثَّرتْ من لفظهِ ... دررٌ تقلَّدُها المعاصمُ والطُّلى [٤]

تهوى النفوسُ عليه مِنْ أَلطافِه ... فتردُّها عَنْه المهابةُ والعُلَى

* * *

(١) أزرى : ارتفع . الثريا : اسم لمجموعة من النجوم . السماك : نجم نير ومنه السماكان الأعزل والرامح نجمان نيران .

(٢) المذلق : الماضى بسرعة .

(٣) عرك الأمور : خبر الأحوال واحتنك بها .

(٤) تقلدها : تتقلدها . المعاصم ما فوق الكف من اليد ، الطلى : العنق .

حاولت أن أُثنى عليك فخانني قلمٌ أراهُ غدا بكفِّى مِغزَلا [١]
فرأيتُ مدحَكَ لا تفيهِ عبارةٌ ورأيتُ مدحَ الأكثرين تَمحُّلا [٢]
وعدلتُ تقصيرى بوصفِكَ عاجزًا وعلمتُه فعَذَرْتَنى مُتفضِّلا
ولعلَّ عَجزى فى مديحِكَ ناطقٌ عَنِّى بأفْصَحَ من ثناىَ وأطْوَلا [٣]
والصُّبحُ أوضحُ من مقالةِ قائلٍ لاحَ الصَّباحُ إذا تألَّقَ وانْجَلَى [٤]

حكمة المعبود

وقال يمدح جلالة أوسكار الثانى ملك أسوج ونروج ويذكر قدوم أحد أنجاله إلى المشرق سنة ١٨٩٠م ويشير إلى نوط العلوم والفنون الذى أهداه إليه :

ملكٌ أحَلَّتْهُ أسوجُ وذكرهُ يطوى من الآفاقِ كلَّ بعيدِ [٥]
ضَمَّ الصَّفائحَ والصَّحائف فى يد ضمّت من الأخطارِ كلَّ مجيدِ [٦]
فأصابَ فى الأملاك أشهرَ موضعٍ وغَدا لأَهْلِ العلمِ خير عميدِ

* * *

ولقد سننتَ لكلِّ فضلٍ مَنْهَجًا بك أهلُه تأتَمُّ هدىَ رشيدِ [٧]
ورفعتَ بَنْدَ العِلْمِ فاحتشدَت به الـ علماء تحت لِوائِك المعقودِ [٨]

---

(١) المغزل : آلة لغزل الصوف والقطن خيطاناً .
(٢) التمحل: طلب الشيء بحيلة وتكلف .
(٣) ثناى لغة فى ثنائى : مدحى .
(٤) تألق : لمع . انجلى : وضح وظهر .
(٥) الآفاق جمع الأفق : ما بعد عن النظر بحيث ترى آخر الفضاء ملاصقاً للأرض .
(٦) الصفائح : كناية عن السيوف .
(٧) المنهج : الطريق .
(٨) البند : العلم واللواء .

نَزَلُوا على كَنَفٍ كريمٍ عنده   نَعِمُوا بظلٍّ من نَداكَ مَديدِ [١]
وأَنلْتَهُمْ شرَفاً بهِ حَمِدُوا الذى   أَلِفُوهُ مِن نَصَبٍ ومن تسهيدِ [٢]
وتعرَّفتْ فيك العلومُ بأَنَّها   فخرٌ لكلِّ مسوَّدٍ ومَسُودِ

* * *

ولقد كسانى حسنُ رأيكَ حُلَّةً   غَضَّتْ محاسنُها عُيونَ حَسُودِ
قلَّدْتَنى فخراً غدا لى حجَّةً   فتناولوا البرهانَ من تقليدى
رسمٌ رأيتُ بهِ جَلالَكَ ماثِلاً   فنكصتُ بين مَهابةٍ وسُجُودِ [٣]
شرفٌ لِصَدْرى وهو أَرْفَعُ منزلا   من أَنْ يحلَّ بلبّةٍ أو جيدِ [٤]
فَلَكَ الثناء علىَّ مدحةَ منعمٍ   ما إِن يقابَلُ فضلهُ بجُحُودِ [٥]
قصّرتُ فى مدحيكَ حتى تاحَ لى   قدر الوفا فنشطتُ بعد قُعودى

* * *

ورأيتُ رَسمَكَ فى أَجلِّ مصوّرٍ   رسمتك فيه حكمةُ المعبودِ [٦]
فرعٌ لدوحتِكَ الشريفة قد أَتى   من عزّك المرفوعِ تحتَ بُنودِ [٧]
ريَّان تقدمه السّعودُ إذا مشى   ويُحَفُّ من ملإِ السَّما بجنود

---

(١) الكنف : الجانب .
(٢) التسهيد : السهاد والأرق .
(٣) نكص : رجع وتأخر .
(٤) اللبة : المنحر ، موضع القلادة من الصدر .
(٥) الجحود : نكران النعمة .
(٦) أى أنه صورة طبق الأصل عن أبيه .
(٧) الدوحة : الشجرة العظيمة استعيرت للأسرة المالكة . بنود جمع البند : العلم واللواء .

شخصتْ لموكبهِ العيونُ فأبصرتْ   بدراً تألّق في غَمامِ وفودِ (١)
ولقد أقولُ لثغرِ بيروتَ ابْتسِمْ   بلقاءِ أبناءِ الملوكِ الصِّيدِ (٢)
وافاكَ مَنْ طربت لمقدمِه رُبى   لبنانَ فاتّشحَتْ ببيضِ بُرودِ
هذا ابنُ أوسكارَ العظيمِ قد انْجلَتْ   بالسَّعْدِ غرّة نجمه المرصودِ (٣)
نعشتْ بشائرهُ المُنَى فتهلَّلتْ   قبل اللّقاءِ بوفدِه الموعودِ
وافى فحيَّاهُ سُهيلُ ورفرف الـ   ـنسرُ المجيد مصفّقاً في العودِ (٤)
هو صفوَةُ الشرف العريقِ مسلسلاً   من عهدِ آباءٍ لهُ وجُدودِ

ب — في الرثاء

حكم الأقدار

من قوله في صباه يندب أخاه الشيخ حبيباً الذي قضى شاباً وأثرت وفاته في والده فتوفي بعده بزمن قليل :

* * *

سَأَبْكي عليه كُلَّما لاَحَ بارقٌ   برابيَةٍ فاسْتمطرَ الدّمْعَ لائِحُهْ (٥)
وأنْدبُ ما ناح الحَمَامُ فهيَّجت   بلابلَ قلبي للشُّجُونِ مَنائحُهْ (٦)

---

(١) تألق : لمع .

(٢) الصيد جمع الأصيد : الملك وأطلق عليه لأنه لا يلتفت زهوه يميناً ولا شمالا .

(٣) غرة : طلعة .

(٤) سهيل : اسم لنجم . وفي البيت تورية في قوله النسر يراد به النسر الواقع وهو اسم لنجم أو الطائر المعروف .

(٥) لاح : ظهر . الرابية : المرتفع من الأرض .

(٦) الشجون : الأحزان .

«حبيب» شجى قلبى المبرَّحَ نَعْيُهُ ... فأَوجَعَ لمَّا صاح بالويلِ صائِحُهُ (١)

وأدركنى ما لم أَكنْ متوقِّعاً ... وذٰلك أولى ما تخافُ نوائِحُهْ (٢)

وإنْ يكُ أَمْسَى مفرداً فى ضريحِهِ ... فقد كَثُرتْ بينَ القلوبِ ضَرائِحُهْ

«حبيب» له فى الحبِّ عندى مواثقٌ ... تقومُ بهِ طَيَّ الفُؤادِ بوارِحُهْ

أَريحانَ نفسى أَذهبَ الدَّهْرُ أُنسَها ... وقرَّةَ جفنى بعدكَ الدَّمْعُ قارحُهْ (٣)

وكنَّا يدًا فى الدَّهْرِ حتَّى أَصابنا ... بخطبٍ تلقَّانى وإِيَّاكَ جاءحُهُ (٤)

ويوم تلقَّانى فضيَّع شؤْمُه ... بقيَّـــةَ أيَّامى بما جرَّ نائِحُهْ

* * *

ولا بُدَّ لِلإِلفَيْنِ مِنْ يومِ فجعةٍ ... تَحَمَّلها الباقى فطالتْ بوارِحُهْ

إذا أمضتِ الأقدارُ قاطعَ حُكْمِها ... تضيقُ على ليثِ الفلاةِ مسارِحُه (٥)

عليه سلامُ اللّٰه ما لاحَ بارقٌ ... وعاهدَهُ غادى السَّحابِ ورائِحُهْ

عبرة الأقلام

وقال يرثى الأمير محمد أرسلان وقد توفى فى القسطنطينية :

حياةٌ أسرُّ العيشِ فيها مُذمَّمُ ... وناسٌ بها قلبُ الخلىِّ مُتَيَّمُ (٦)

---

(١) شجى : أحزن .

(٢) النوائح جمع النائحة : الباكية على الميت .

(٣) قرة العين : سرورها .

(٤) الخطب : المصاب .

(٥) الليث : من أسماء الأسد .

(٦) الخلى : الخالى من الهم .

سقتْ كلَّ قلبٍ كلَّ يومٍ مشارِباً ... توهَّم فيها لذَّةً وهيَ عَلْقَمُ (١)

تشاغلتِ الألبابُ فيهــا من الصِّبى ... ولم تَكُ أدنى صبوةً حينَ تحلُمُ (٢)

تبطَّلَ كلٌّ بالأمانى ولمَ يزلْ ... يروحُ ويغدو وَهْوَ للموتِ مَغْنَمُ

وما الأرْضُ إلاَّ قفْرَةٌ زأرتْ بِها ... أُسودُ المنايا حَوْلنا وهْىَ حُوَّمُ (٣)

لها كلَّ يومٍ بيننــا كُلُّ مُنْذِرٍ ... يُنادى علينا مُسْمِعاً وهو أبْـكَمُ (٤)

تُنَـبِّهُنَا بَعضاً ببعْض فننْثنى ... وأجفانُنـا فى غفـلةِ اللَّهوِ نُوَّمُ

خَلتْ دُونها شمُّ الحصونِ فَلمْ تكُنْ ... لساكِنها مِنْ غارةِ البَيْنِ تَعْصِمُ (٥)

وأصبحَ مَنْ قد كانَ يُرهَبُ بَأسُهُ ... يُناحُ عليهِ بعد حينٍ ويُرْحَمُ (٦)

ترابُ من الأرْضِ استَوى تحتَ صورةٍ ... تلوحُ عليهــا مُدَّةً ثُمَّ تُهْدَمُ

ســلامٌ على قبرٍ توسَّــد تُربَهُ ... حبيبٌ عليه مِنْ بعيدٍ أُسَلِّمُ (٧)

وما كانَ يُغنى لو تَدانى ودونَهُ ... منَ الرَّمْسِ قد أمسى حجابٌ مُخيَّمُ (٨)

لَـئِنْ لم تصبْ عينى ثراهُ فإنَّ لى ... هُنالِكَ قلباً مِنْــهُ قد قَطَر الدَّمُ

وما جَفَّ دمعى بعدَه غير أنَّهُ ... يُدمِّجُ خضراءَ الرُّبى حين يسجمُ (٩)

نعاه لنـا النَّاعى فى كلِّ مَسْمَعٍ ... كلامٌ ولـكن فى الأضالعِ أسْهُمُ (١٠)

---

(١) العلقم : اسم لنبات شديد المرارة .

(٢) الألباب : جمع اللب : القلب . تحلم : تصير إلى الحلم ، الفتوة .

(٣) زأرت : صاحت بها الأسود ، والزئير صوت الأسد . المنايا : جمع المنية ، الموت .

(٤) الأبكم : الأخرس .

(٥) شم الحصون : الحصون العالية . تعصم : تحفظ .

(٦) بأسه : شدته وقوته .

(٧) توسد : تمدد .

(٨) الرمس : القبر .

(٩) يسجم : يقطر ويسيل وهو مختص بالدمع وسحابة الماء .

(١٠) المسمع : الأذن .

تَنوحُ عَلَى فقدِ الأميرِ محمَّدٍ ... رِجالٌ عليــهِ بالدّما تتلثمُ
عزيزٌ له فى كلّ عينٍ مدامعٌ ... وفى كلّ قلبٍ جمْرَةٌ تتضرّمُ (١)
وكم مِنْ جيوبٍ بل قلوبٍ تَشَقّقتْ ... عليه وكَمْ مِنْ أَوجهٍ فيه تلطَمُ (٢)
ولمّا نُعى فى أرض لبنانَ أوشكتْ ... جنادلُه من حسرةٍ تتألّمُ (٣)
كريمٌ له من آلِ رسلانَ محتدٌ ... ومن نفســه مجدٌ سنىّ معظّمُ
ومن ذكره ما يعجز الدّهرَ سلبُهُ ... ومِنْ شكرهْ فى كلّ ذى منطقٍ فمُ
أيا مَنْ قضى فى غربةِ الدّارِ نازحاً ... فكلّ فؤادٍ نازحٌ متصرّمُ (٤)
رُويدَك ماللصّبْرِ بعدك مِنْ يدٍ ... إذا ما اقتضى الصّبْرَ المصابُ العرمرَمُ (٥)
ترحّلت فى شرخِ الشّباب مغادِراً ... من الحزنِ ما يودى الشّبابَ ويُهرِمُ (٦)
ومثلُك مَنْ حَقَّ التأسُّفُ بعدَهُ ... وغيرُك مخلوفٌ ومثلُك يُعدَمُ
تنوحُ القوافى بَعدَ يومِك حسرَةً ... فتوشكُ تخشى نثرَها حين تنظمُ (٧)
وتَندبُك الأقلامُ من حيث ردّدت ... حنيناً وأجرَتْ عبرَةً حينَ ترقمُ (٨)
وبيْنَ المذاكى والسُّيُوفِ مناحَةٌ ... وبَيْنَ الحجى والعلمِ والمجدِ مأتَمُ (٩)

---

(١) تتصرم : تتقطع .
(٢) الجيوب جمع الجيب : وهو من القميص الموضع المقور .
(٣) جنادله : جمع الجندل ، الصخر .
(٤) النازح : المبتعد عن داره .
(٥) العرمرم : الكثير الصاخب .
(٦) شرخ الشباب : أوله .
(٧) القوافى : القصائد من باب تسمية الجزء باسم الكل .
(٨) عبرة : دمعة .
(٩) المذاكى : الخيل . الحجى : العقل . المأتم : مكان الندب على الميت .

أَلاَ يا بنى رسلانَ صبراً لفقدِهِ فذلك مِمَّا يَقتضيه التكرُّمُ
إذا ما دُفِعنـــا للبليَّةِ مَرَّةً ولم ننتفع بالحزنِ فالصَّبْرُ أَحْزَمُ
جرى قدرُ المولى بِما شاءَ واسْتَوى لديهِ جَزوعٌ فى الأسى ومُسَلِّمُ (١)
وليس لنا من مطمعٍ فاتَ نيلُهُ إذا كانَ ما نبغيهِ ما ليسَ يُغْنَمُ
وما كان ما لا بُدَّ منه مؤخّرًا يهونُ لديه الرُّزْءُ وهو مُقدَّمُ (٢)
وما الفرقُ فى الحالين إلاّ هنيهةٌ تَمُرُّ سريعًا والقضاء محتَّمُ

ج — فى الوصف

الجماد الحىّ

قال يصف المحرك المائى الذى اخترعه يوسف إيلياس المهندس فى بيروت لما احتفل به فى محلة الجناح سنة ١٨٨٧م .

عُجْ بالجناحِ وقُلْ لليعملاتِ قِفى وَحَيِّهِ بلسانِ الشّيِّقِ الكلِفِ (٣)
وسرّحِ الطَّرْفَ فى ما فيه من عجبٍ يلهو بهِ الصبُّ عمَّا فيه مِن شَغَفِ (٤)
هذى هى التحفةُ الغرّاء قد برزتْ للنَّاظِرينَ فأروتْ غُلَّةَ اللّهِفِ (٥)
محرّكٌ أبدًا يجرى الحراكُ بهِ على أتمِّ نظامٍ غيرِ مختلفِ
هو الحياةُ بهِ يحيا الجمادُ فلو يناطُ يوماً بقلبِ الحىّ لم يقفِ (٦)

---

(١) جزوع : فاقد الصبر . والأسى : الحزن .

(٢) الرزء : المصاب .

(٣) اليعملات : جمع اليعملة : الناقة السريعة . الشيق : المشتاق . الكلف : المغرم .

(٤) الصب : العاشق . الشغف : الحب الشديد .

(٥) برزت : ظهرت . الغلة : شدة العطش .

(٦) يناط : يربط ويعلق .

به انجلتْ قدرةُ الإِنسانِ واتّضحتْ ... مزيَّة الخلَف البـاقى على السَّلَفِ
وأَصْبَحَ الشَّرْقُ مِنْ زَهْوٍ يجرُّ بهِ ... على المغاربِ ذَيلَ الفخرِ والشّرفِ

زهر الياسمين

وقال يصف زهر الياسمين :

انظر لزهرِ الياسمينِ وقد بدَتْ ... أوراقُه فى الروضِ كالغصنِ الندى
شبّهتُه بقلائد من فضَّـةٍ ... سقطت فصادتها سهامُ زمرّدِ (١)

الزُّهَرَةُ (٢)

أولع الشيخ بعلم الفلك فشى به شوطاً محموداً وقد سره منظر الزهرة وهى معبود الأوائل فقال يناجيها ويتحدث إليها متسائلا عما فى أرضها من بشر :

قِفْ بى نُحَـىِّ رُباها أَيُّها الحادى ... فتلك أَبْيَاتُها فى عُدْوَةِ الوادى (٣)
قَدْ خيَّمت باللِّوى الغربىّ ضاربةً ... عليه أَطنابَهـا مِنْ غيرِ أوتادِ (٤)
مقيمةٌ لم تقمْ إلَّا على سَفَرٍ ... ما يَنْقضى بين تأويبٍ وإسآدِ (٥)
تمشى الهُوَيْـنَى كما مرَّ النّسـيمُ ضحًى ... فى هودَجٍ من شُعاعِ النُّور وقَّادِ
يحجِّبُ البعدُ سِماها فإن قرُبَتْ ... صَدَّتْ دلالاً فزادتْ غُلَّةَ الصادِى

---

(١) القلائد : جمع القلادة ، طوق من حجر ثمين يوضع فى العنق . الزمرد : حجر كريم .

(٢) الزهرة : اسم لنجمة ويدعوها العامة نجمة الصباح ، عبدها الأوائل وقدموا لها القرابين راجع وصفها نثراً فى المختارات .

(٣) الحادى : المنشد وراء إبله . عدوة : منعطف .

(٤) اللوى: منعطف الرمل . أطنابها : ما تشد إليه الخيام .

(٥) تأويب : رجوع . إسآد : سير الليل كله بلا تعريس أى إقامة فى الليل .

يسارقُ الطرفُ عينَ الشمس منظرَها ... فالشمسُ من دونِها حلّت بمرصادِ
حتى إذا هَجعتْ فى ليلِها ظَفِرتْ ... منها العيونُ بلمحِ المِيسَمِ البادى[(١)]
فنبئينا رَعاكِ اللهُ جارتَنا ... بل أنتِ سَوْغٌ لنا من عهدِ ميلادِ[(٢)]
قد انقطعنا فما إنْ بيننا صِلَةٌ ... ولا سبيلٌ لملّاحٍ ولا حادِ[(٣)]
ولم يكن بيننا سَدٌّ وقد ضربَتْ ... أيدى الفضا دونَ لُقيانا بأسْدادِ
ما إنْ ينالُكُمُ للبرقِ منطلقٌ ... ولا يقرّبُ منكم سيرُ منطادِ[(٤)]
وإنما رُسْلُنا الأنوارُ حاكيةً ... نارَ الصّليبِ تبدّتْ فوقَ أنجادِ[(٥)]
تُهدى لنا عنكُمُ رمزاً تعودُ لكم ... بمثلِه بيْن إصدارٍ وإيرادِ[(٦)]
يا ليتَ شعرىَ هَلْ تدرين موضعنا ... وهَلْ لديكِ رجالٌ أهلُ أرصادِ ؟
وَهلْ رأوا رَكبَنا النوريَّ منطلقاً ... فى ليلِهم بينَ تصويبٍ وإصعادِ
وهَلْ أقاموا لنا مثلَ الذى رفعتْ ... آباؤُنا لكِ من تكريم عُبّادِ
فذى هيا كِلُكِ الشمّاء قَدْ شخصتْ ... هاماتُها فى الذُّرَى أمثالَ أطوادِ[(٧)]
رأَوْكِ للحسنِ معبوداً وما وهمُوا ... فالحسنُ معبودُ عشّاقٍ وزُهّادِ

---

(١) هجعت : نامت .

(٢) السوغ : الذى ولد على إثره ولم يولد بينهما .

(٣) الملاح : البحرى الذى يشتغل فى سفر البحر .

(٤) ما إن ينالكم : إن زائدة ، أى ما ينالكم . المنطاد : مركب الهواء Ballon

(٥) نار الصليب : أى النار التى توقد يوم عيد ارتفاع الصليب وهو ذكرى استرجاعه من بلاد الفرس أيام هرقل ملك بزنطية .

(٦) الإصدار : الرجوع عن الماء . الإيراد : الذهاب إليه .

(٧) هاماتها : جمع هامة ، رأس . الذرى : جمع ذروة : قمة الجبل ، أى رأسه . أطواد : جمع طود ، الجبل .

لعلَّ للأرض هذا الحظَّ عندكُمُ وأنَّها لو علمتُم دارَ إفسادِ
وعَلَّكِ اليومَ خلوٌ من مفاسِـدها وإنْ نكنْ قد خلقْنا خَلْقَ أندادِ[1]
أنت الفتيَّةُ لا تدرين مفسدةً أينَ المفاسدُ من أخـلاقِ أولادِ؟
ضلَّ الجميعُ وتاهُوا فى غوايتِهِمْ فما اهتدى حاضِرٌ منهم ولا بادِ[2]
وأصبحَ الزورُ مرفوعَ اللّواءِ بِهِمْ وقائل الحقِّ موصوفاً بإلحادِ
قامَ الخصامُ بِما لا يعلمون له كُنْهاً وَلَمْ ترَهُ أبصارُ أشهادِ
شعبٌ تفاقمَ فى الأجيالِ واضطرمتْ بهِ العَداواتُ دهراً بين أكبادِ

* *

أما كفاكم بنى الإنسانِ شقوتُكُمْ وأنّـكمْ للمنايا جِدُّ رُوّادِ[3]
وما تُعانونَ منْ جُهدِ الحيـاةِ وقَدْ أمستْ كوقرٍ ثقيلٍ بينَ أكتادِ[4]
ومِن تقلّبِ أطوارِ الزَّمانِ بِكُم كأنّما هو حِرباءٌ بأعـوادِ
ومِنْ مراغمةِ الأقدارِ طاردةً لـكم كتيَّارِ يمٍّ حولَ طرّادِ[5]
ومِنْ مُزاولةِ الأرزاقِ بغيتِها تزاحمونَ بأقدامٍ وأعضادِ
ومن مكايدةِ الأدواءِ ساطيةً ومن نوازل لا تُحصى بتعْدادِ
فما لـكم تسعدونَ الدهرَ بعضكُمُ لـكيدِ بعضٍ بهِ يا شرَّ إسعادِ!

---

(١) الأنداد : ج ند : المساوى لك بكل شىء .

(٢) الحاضر : ساكن المدينة . البادى : ساكن البادية .

(٣) المنايا : ج منية ، الموت . الرواد : ج رائد ، المسافر ، وتطلق على الذين يزورون الأقطار بقصد الاستكشاف .

(٤) الوقر : الحمل الثقيل الذى ينوء تحته حامله . أكتاد : ج كتد ، ما بين الكاهل إلى الظهر .

(٥) اليم : البحر . الطراد : آلة حربية بحرية تشبه السفينة .

وإنّما أرضُنا دارُ السَّلامِ لِمَنْ يبغى السَّلامَ ودارُ الحربِ للعادى
وكلُّنا فوقَها رهنُ الزَّوالُ فلا أضلَّ بعد الكفى من سعى مُزْدادِ

د ـــ فى الغزل

ما مرّ ذكرك

ما من أديب إلا وتأخذه رعدة الحب فتحرك قلبه فيجرى ما ينبض به قلبه على أسلات لسانه شعراً، وقد حرك شيخنا الحب فقال :

ما مَرَّ ذكركَ خاطراً فى خاطرى إلّا استباحَ الشَّوْقُ هَتْكَ سرائرى [١]
وتصبّبت وجداً عليكَ نواظرٌ باتتْ بليلٍ من جفائكَ ساهرِ [٢]
بلَغَ الهوى منِّى فإنْ أحبَبتَ صِلْ أوْ لا فدَتكَ حُشاشتى ونواظرى [٣]
قسماً بحُسنِكَ لمْ أصادفْ زاجراً إلّا وحُسنُكَ كانَ عَنهُ زاجرى [٤]
أوَما كفاكَ مِن الذى لاقَيتُهُ وَلَهٌ كَسانى الذُّل بينَ معاشرى
وضًنى يكادُ يشِفُّ عن طىِّ الحشا حتّى خشيتُ بهِ افتضاحَ ضمائرى [٥]
أخذت عيونُكَ من فؤادى مَوْثِقاً وعلىّ عهدُ هواكَ لستَ بغادرِ [٦]
كُنْ كيف شئتَ تجِدْ محبّكَ مِثلَما تهوى على الحالَيْنِ غير مغايرِ
عذّبتَ قلبى بالصُّدودِ وإن يكنْ لكَ فيهِ بعضُ رضًى فدونكَ سائرى [٧]

---

(١) السرائر : ج سريرة ، الضمير أو ما استتر فى الذهن .
(٢) وجداً : شوقاً . الجفاء : البعد .
(٣) الحشاشة : حبة القلب .
(٤) الزاجر : الوازع ، المانع .
(٥) الضنى : السقم .
(٦) الموثق : العهد .
(٧) الصدود : الامتناع والابتعاد .

وأضعتُ عمري بالدَّلال وحبَّذا إن صحَّ عندك مطمعٌ في الآخِرِ
كَثُرَ التقوُّل بيننا وتحدَّثوا يا هاجري حاشاك أَنَّك هاجري

ه ـ السياسة

تنبهوا واستفيقوا

نظمها سنة ١٨٦٨م وكانت البلاد العربية بأسرها بقبضة العثمانيين يتحكمون بها وقد غشيها فساد إداري واجتماعي فتمنى الأحرار أن ينفضوا عنهم ذلك النير الثقيل ، ونشرت هذه القصيده سرا ، فكان لها صدى رددته رقعة البلاد العربية مما حمل حكومة الآستانة أن تهتم بها فسعت لمعرفة ناظمها فأخفقت ولم تهتد إليه :

تنبَّهُوا واستفيقوا أيُّها العربُ فقد طَمَى الخطبُ حتى غاصت الرُّكَبُ [(1)]
فيمَ التعلّلُ بالآمالِ تخدعكمْ وأنتُمُ بين راحاتِ القنَا سُلُبُ [(2)]
اللهُ أكبرُ ما هذا المنامُ فقد شكاكُمُ المهدُ واشتاقتكم التُّرَبُ [(3)]
كم تُظْلَمون ولستم تشتكون وكم تستغضبون فلا يبدو لكم غضبُ
أَلِفتُمُ الهُونَ حتى صار عندكُمُ طبعاً و بعضُ طباع المرء مُكتَسَبُ
وفارقتكُمْ لطولِ الذُّلِّ نخوتُكمْ فليسَ يؤلِمكُم خَسْفٌ ولا عَطَبُ [(4)]
للهِ صبركُمُ لو أنَّ صبرَكُمُ في ملتقى الخيل حين الخيلُ تضطربُ
كم بين صبرٍ غدا للذلِّ مجتلِباً و بين صبرٍ غدا للعزِّ يَجْتَلِبُ

---

(١) طمى : زاد وارتفع . الخطب : المصيبة .
(٢) القنا : الرماح . سلب : مسلوبون وحقكم مضاع .
(٣) المهد : سرير الطفل . اشتاقتكم الترب : اشتاقت إليكم المقابر .
(٤) النخوة : الشجاعة . خسف : ظلم .

فشمِّروا وانْهَضُوا للأمر وابتدروا ... من دهركمْ فرصةً ضَنَّت بها الحقبُ[1]
لا تبتغوا بالمُنى فوزاً لأنفسكمْ ... لا يَصْدُق الفوزُ ما لم يصدقِ الطلبُ
خلُّوا التعصُّبَ عنكم واستووا عُصباً ... على الوِئامِ لدفع الظلمِ تعتصبُ[2]
هذا الذى قد رمى بالضَّعفِ قوّتكُمْ ... وغادرَ الشّمْلَ منكم وهو منشعبُ[3]
وسَلّطَ الجورَ فى أقطاركم فغدَت ... وأرضُها دونَ أقطارِ الملا خرِبُ
وحَكَّمَ العِلجَ فيكم مع مهانتهِ ... يقتادكم لهواهُ حيث ينقلبُ[4]

* * *

باللهِ يا قومنَا هبُّوا لشأْنكمُ ... فكم تناديكمُ الأشعارُ والخطبُ
ألستمُ من سطوا فى الأرض واقتحموا ... شرقاً وغرباً وعزّوا أينما ذهبوا
ومَنْ أذلّوا الملوكَ الصِّيدَ فارتعدتْ ... وزلزل الأرضَ ممّا تحتها الرَّهَبُ[5]
ومَنْ بنَوا لصروحِ العزِّ أعمدةً ... تهوى الصواعقُ عنها وهى تنقلبُ[6]
فمَالكُمْ ويحكمْ أصبحتُمُ هَمَلاً ... ووجهُ عزِّكُمُ بالهونِ منقلبُ[7]
لا دولةٌ لكمُ يشتدُّ أزركمُ ... بها ولا ناصرٌ للخطب يُنْتَدَبُ
وليسَ من حرمةٍ أو رحمةٍ لكُمُ ... تحنو عليكُمْ إذا عضّتكمُ النُّوَبُ

---

(١) ضنت : بخلت . الحقب : جمع الحقبة ، المدة من الزمن ويراد بها السنة تجوزاً .
(٢) عصباً : جماعة . الوئام : الحب .
(٣) منشعب : متفسخ .
(٤) العلج : يراد به الأتراك .
(٥) الرهب : الخوف .
(٦) الصروح : جمع الصرح ، البناء الفخم .
(٧) الهمل : من الحيوان ، المهمل .

٢ – إبرهيم اليازجى الناقد

١ – دستور الأدب

سخف وأسف

لم يكن الانتقاد فى عصر المترجم له انتقاداً متزناً يتحرى الحقائق ، بل كان مهاترة وسباباً وقدحاً أو مدحاً وتعظيما ، وما كان الناقد يغوص على فكر المنقود فيظهره بحسناته أو سيئاته . فجاء الشيخ يشق طريقاً جديداً فى النقد ، يتنكب فيه عن هجر الكلام الداعى إلى التنابذ والتنافر والتقاطع والتدابر وجر المرء إلى هبوط منزلته و إخلاق ديباجة وجهه . قال ينتقد بعض الشعراء والأدباء :

انتهت إلينا نسخة من كرّاسة تحت عنوان[١] ... تشتمل على مجموع القصائد التى نظمت لحضرة الوجيه الأمثل . . . تهنئة له برتبة الوزارة السنيّة جمعها وطبعها حضرة الأديب . . . وقد تصفّحنا بعضها على قدر ما وسعه وقتنا الضيّق وفسح لنا تراكم الأشغال ، فرأينا فيها من غرائب النظم ، ما استوقفنا وايم الله[٢] بين الحيْرة والأسف لما تمثّل لنا من تخلُّف صناعة الأدب فى بلادنا السوريّة مع ما نعلم فيها من زيادة وسائل انتشار العلم وكثرة المدارس والدّارسين ، وتمنَّينا أن لا يكون ذلك عن تراجع فى الفطرة ، وانتكاسٍ[٣] فى استعداد السُّلالة الشرقية التى طالما لمعت أشعة ذكائها فى العصورِ الغوابر .

لا جرَم أنَّ مثلَ هذا لمِمَّا تنقبض له صدور الآمال ، و يكفهرّ له[٤] محيَّا الاستقبال ، وممَّا يسجّل على الشرقىّ بتمام الانحطاط والاضمحلال ، لولا أنَّنا لم نزل نشاهد من نجابة[٥] مواطنينا الأعزّاء ونوابغ عقولهم ، حيثما انقلبوا وفى أى

(١) أغفلنا اسم الكراسة واسم جامعها عمداً .
(٢) ايم الله : اسم وضع للقسم .
(٣) انتكس المريض : إذا عاودته العلة بعد النقه والإبلال ، والمراد هنا ، التقهقر .
(٤) يكفهر : يظلم ، والمراد هنا يعبس .
(٥) نجابة : ذكاء .

مأخذٍ شرعوا ، ما يؤيِّدُ أن شعلة ذلك الذكاء لم تبرحْ تتوقّد فى فِطرهم الشفّافة وما استبنَّا منه أن ما ظهر لنا من ذلك التخلّف ، لم يكن عن نقصٍ فى الغرائزِ ولا فتور فى الذّكاء ، وإنّما هو من نقصِ العلمِ وسوء التلقين وفَقْدِ المنبّهين على العثرات والمسدّدين فى طريق العَملِ ، ممَّا سوَّل[1] للقاصر أن يتطاول إلى ما يفوتُ يدَه من الغاياتِ ، وأراه طريقَ الفضلِ سهلاً ، فوطِئَهُ وهو لا يدرى ما أمامَهُ من المهاوى والعقبات ، فكثر المتطفّلون[2] على موائد العلم ، والمجترئُون على مقامات الشعر والإنشاء ، على حينَ لا وازعَ يَزعُ[3] ولا هادى يدعو فيتبع .

وما كان أحوج البلاد إلى مسيطرين على أقلام أصحاب الجرائدِ السياسيّة وصُحفِ الأخبار ، لأنّه إذا خيف من تلك أن تَضرَّ بالمصلحة الوطنيّة من الجهة السياسيّةِ ، فإنَّ هذه ولا جرَمَ تضرُّ بها من الجهةِ الأدبيّة ، بما تؤدّى إليه من فساد اللغة التى هى أعظمُ أركانِ الوطنيّة ، وأهم روابط الجامعة الأُمّية[4] .

ومعلومٌ أنَّ الشعر من أعلى طبقات الكلام وأبعدها غاية ، لما يقتضيه من شرف الألفاظ ونباهةِ المعانى ، وسلامة الذوق والمبالغة فى التنقيح والتهذيب ، فابتذاله على ألسنة غير أهله ، ممَّا يزرى به ويُفسِدُ رونقَهُ ويسقط مزيته ، بل ربَّما أفضى إلى دفنِ كثيرٍ من جواهره فى صدور أربابهِ ، لأنّه إذا أصبحَ متداولاً بين أيدى العامّة وابتذله مَنْ لا يحسنه ، أَنِفَ[5] المجيدون له من

---

(١) سول : زين ، سهل .

(٢) المتطفلون : من تطفل إذا صار طفيلياً نسبة إلى طفيل وهو رجل من العرب كان يأتى الولائم من غير أن يدعى إليها .

(٣) الوازع : الزاجر ، المانع . يزع : يزجر يمنع .

(٤) الأمية : نسبة إلى الأمة .

(٥) أنف : امتنع حمية واستكباراً .

انتحاله ، وتجافى كبراء أهلِ القول عن نزول كنفهِ .

وهذا ولا ريبَ أحدُ أسبابِ عقمِ الشعرِ فى هذى الأيَّامِ وانصرافِ الرّغبة عنه إلى النثر الذى لا يجلّى فى حلبتيه[١] إلَّا كلّ مَن أعطته البلاغة قيادَها[٢] وملَّكته الفصاحة عنانها[٣] ولذلك ترى المتعرّضين للشعرِ أكثرَ من المتعرّضين للنثر حتَّى فى الأعصرِ الاولى ، وأيَّام كانت الفصاحة شائعة بين طبقات المتأدبين على العموم . ولقد مَرَّ بنا كثير من ركيك الشعرِ وساقط القولِ ، ولاسيمافى هذى السنين المتأخرة، التى لم يبق فيها من عرف قاعدة من قواعد الصرف، أو قرأ ديواناً من دواوين الشعراء إلاَّ تصدَّى للنظمِ وطيّرَ قصائده فى البلاد .

إلاَّ أنَّ جُلَّ ما كُنَّا ننكِره على أولئك الشعراء ، خلوُّ كلامهم من مبتكر المعانى وجليل الأغراض ، وبعد ألفاظهم عن مقام الجزالة العربيّة التى هى حِلْيَةُ الشعرِ ورونقُهُ . ولم نكن نتوهَّم أن نرى من الشعرِ ، ما يبلغ أن ينتظمَ فى سلك اللَّغْوِ[٤] ويعَدُّ ضرباً من التخليط والهذيان، مِمَّا لم نرَ له مثيلاً إلاَّ فى كلام بعضِ الجرائد عندنا ، ممَّا سبقت لنا الإشارة إليه فى غير هذا الموضع .

لا جرَمَ أن هذا من فاحش التأخّرِ بل هو نهاية السقوط والانحطاط . ولولا أن تكونَ تلك القصائد مطبوعة متداولة بين أيدى المطالعين ، لما كُنَّا نؤثِرُ[٥] إلاَّ سَترَها على أربابها تفادياً من هذى المعرّةِ[٦] الشنعاء .

---

(١) الحلبة : الميدان تتسابق فيه الخيول .

(٢) قيادها : من قياد الدابة ، رسنها .

(٣) العنان : سير اللجام للفرس وهى وما قبلها استعارة بجامع المقدرة .

(٤) اللغو : ما لا يعتد به من كلام وغيره .

(٥) نؤثر : نفضل .

(٦) المعرة : العار ، العيب .

وأمَّا ما هناك من أغلاط اللغة والنحو والوزن والتقفية فأمرٌ يطول الكلامُ عليه ، وليس من قصدنا فى هذا الموضع ، وقد امتدَّ بنا نَفسَ الكلام إلى ما لا يحتملهُ حالُ هذى القصائد ، ولا تتّسِـع صفحات هذى المجلّة [الضياء] للمزيد عليه .

واللهُ يعلم أنْ ليس غرضُنا فيما أوردناه تثبيط[1] أقلام أولئك الأدباء وأمثالهم عن الجرى فى هذا المضمار ، فإنَّه ليسرّنا أن نرى فى قومنا ، مَن يهتمُّ بالأدب واللغة و يشتغل بالشعرِ والإنشاء . وهو ولا شكَّ ممَّا تفخر بهِ البلاد ، و يحيا بهِ تمدُّن الأمّةِ . ولـكن لا أقلَّ من أن يكون ما يأتون بهِ صحيحَ التّركيب مفهومَ المعنى ، ولا نطالبهم بالفائق ولا الجيّد ، و إلاَّ فقد كانت الأُميّة أَجملَ وأسترَ . و إنَّما الذى نتوخَّاه هنا ، تنبيههم إلى التثبُّت فيما يكتبون ، وأنْ لا يعجلوا إلى نشرِ ما يبْدرُ من قرائحهم ، قَبْلَ تَنقيحِه وعَرْضِهِ على مَن يُقيم من أَوَده[2] أو ينبّه إلى ما فيه من خطأٍ أو لحن[3] و إلاَّ فلا أقلَّ من أن يُطلِعَ الواحدُ منهم صاحبه ، على ما يجود به خاطره ، فإنَّ للمرءِ فى شعرِ غيره ، نظرةً غير نظرَتهِ فى شعرِ نفسه ، و إن لم يكن هذا ولا ذاك ، فليطوِ ما ينظِمُه عن نفسهِ أيّاماً حتى يتناساه ، ثمَّ يعاوده ، فإنَّه حينئذٍ يكون نظره فيه كنظر الأجنبىّ ، و يتنبَّه فيه لأشياء لم يتنبّه لها حال النظم .

ونمسكُ عنان القلم على هذا القدر ، تفادياً من المللِ . واللهُ المسؤول أن يسدّدَنا[4] جميعاً بهديه ، وهو حسبنا .

---

(١) تثبيط : تعويق .

(٢) الأود : الاعوجاج .

(٣) اللحن : الخطأ فى الإعراب والبناء .

(٤) يسددنا : يرشدنا إلى السداد وهو الصواب والاستقامة .

ب — فى النقد الأدبى

ديوان المتنبى

بعد أن شرح الشيخ ديوان المتنبى نظر فى مجمل شعره ، فخرج منه بالبحث الآتى وفيه من أدب النقد ما فيه :

ومن تفقَّد أوائل ديوانه ، رآها كذلك ألواناً تَبَعاً لمقامات الكلام ومراتب المخاطَبين ، وكلما أمعن فيما وراء ذلك ، وجد هذا التلوُّن فيه أخفى آثاراً وأقلّ عُروضاً[١] ، إلى أن استقلَّت طريقه وأقلع عن موقف التقليد إلَّا أنه لم يزل فى ملَـكَته شىء ، من ذلك القديم ، أشبه بِعداد[٢] السليم[٣] يعاوده حيث يحتفل، و يقصد الإغراب والمبالغة فى الإحسان ، فيأتى كلامهُ معقَّداً بادى التكاف . ولهذا ترى شعره فى أبى العشائر ، مثلا ، أسهل أسلوباً وأظهر أغراضاً[٤] من بعض شعره فى سيف الدولة[٥] ، مع أنهُ ، ولا شك ، كان أيام اتصالهِ بسيف الدولة أغزر مادَّةً ، وأقدر على التصرُّف بأزمَّة[٦] الكلام . وانظر إلى قصيدتهِ فى أبى العشائر التى أولها : « أتُراها لـكثرة العشاقِ » وقابلها ، مع شعرهِ فى سيف الدولة ، بالقصيدة التى أولها : « رويدك أيها الملك الجليل » مع تدانى[٧] العهد بين القصيدتين ، ثم انظر إلى قولهِ فيهِ : « أيدرى ما أرابك من يريبُ » وقولهِ : « القلب أعلم ياعذول بدائِه » وقوله فى رثاء تغلب بن حمدان : « ما سدِكت علَّةٌ بمورودِ »

---

(١) أقل عروضاً : أقل ظهوراً .

(٢) العداد : اهتياج وجع اللديغ بعد سنة .

(٣) السليم : اللديغ . ويقال للملدوغ تيمناً بشفائه .

(٤) أظهر أغراضاً : أوضح قصداً .

(٥) سيف الدولة الحمدانى أمير حلب وممدوح المتنبى .

(٦) أزمة : ج زمام وهو رسن الدابة واستعير للقبض على مفردات اللغة وكلمها .

(٧) تدانى : قرب .

وقابل هذه كلها بقولهِ : « أنا لائمى إن كنتُ وقت اللوائِمِ » هى قبل شعرهِ فى أبى العشائر . و إن شئت فتجاوزها إلى ما قبل ذلك وقابلها بقولهِ : « لقد حازنى وجدٌ بمن حازهُ بُعدُ » وأختها وقولهِ : « أطاعن خيلا من فوارسها الدهرُ » وقولهِ : « قد علَّم البين منَّا البين أجفانا » إلى ما فى طبقة هذه القصائد مما نظمهُ قبل ذلك بزمنٍ طويل ، فإنَّك ، ولا جرمَ ، ترى هذه أفصح نظماً وأحسن ديباجةً وأبدى أغراضاً ، على دقةٍ فى المعانى وابتكارٍ قد لا تجدهما فى تلك . وذلك أنهُ ، عند اتصالهِ بسيف الدولة ، وقف منهُ بباب حافلٍ بالشعراء والعلماء ، على ما هو مشهورٌ من حال سيف الدولة ورغبتهِ فى الأدب ، حتى يقال إنهُ اجتمع ببابهِ منهم ما لم يجتمع بباب أحدٍ من الملوك بعد الخلفاء . وكان سيف الدولة نفسهُ من الشعراء المجيدين . وكان يتصدى[1] للاقتراح على المتنبى والنقد عليهِ أحياناً بما ذكرنا بعضاً منه فى هذا الشرح . وكذلك كان أكثر بنى حمدان ؛ وقد ذكر منهم الثعالبىّ عدّةً وافرة أورد لهم شعراً فائقاً ، وفى جملتهم أبو فراس ، وهو فى بعض شعرهِ أشعر من المتنبى . وكان المتنبى يتحاماهُ و يتحرَّز من نقدهِ ، وقد نقلنا فى الشرح عند رواية قصيدتهِ التى أولها « واحرَّ قلباه » ما كان من مناقشة أبى فراسٍ لهُ ، ولذلك لم يكن للمتنبى بدّ من حشد القريحة فى مدائح سيف الدولة ، والإكثار من التحرّى ، والتنطُّس[2] فى ألفاظه ومعانيهِ ، والإمعان فى الاحتفال إلى ما وراء طبعهِ ، حتى تنقلب قريحتهُ صنعةً و بادرتهُ تكلفاً . ثم إذا انتقلت إلى شعرهِ فى كافور ، وجدتهُ قد عاد إلى السهولة والرشاقة ، فأشبه شعرهُ فى أبى العشائر ومن قبلهُ . وشعرُه فى ابن العميد متأخرٌ عن شعرهِ فى كافور ، لكنه أشبه بشعره فى سيف الدولة ، لأن ابن العميد كان من مشاهير علماء الأدب وأمراء

---

(١) يتصدى : يتعرض .

(٢) التنطس : التأنق فى الكلام .

النقد ، ولهُ على المتنبى مآخذ ذكرنا ما تيسّر منها فى محلِّهِ . أما شعرهُ فى عضد الدولة فأنزَلُ رتبةً من ذلك كلهِ ؛ لأنهُ كان يرسل الكلام فيهِ من فضل القريحة ، لقلَّة المزاحمين والنقـــاد ، فلم يكن يتوخَّى الاحتفال ولا الاختراع إلَّا ما ساقتهُ القريحة عفواً . لـكنهُ لما نظم فيهِ أرجوزتهُ التى أولها « ما أجدر الأيام والليالى » عاد إلى دأبه[1] الأول من الإغراب[2] والتكلف ، لأنهُ كان فى أراجيزهِ يقصد محاكاة البدويات[3] ؛ ولذلك ترى كل ما لهُ من هذا النوع معقَّداً جافى اللفظ والتركيب ، لا يشبه سائر شعرهِ ، ولا عليه شيء من طلاوتهِ وانسجامهِ .

على أنى لا أقول إن كل ما استعجم من شعر المتنبى وخفى سرّهُ يكون سبيلهُ ما ذُكر ، بل إذا تصفحت شعر كل شاعر لم تستغنِ فى بعضهِ عن قدح زناد الرويَّة وإعمال النظر فى استبانة المقصود منهُ لاستعارة غامضة فى البيت ، أو كنايةٍ بعيدة ، أو إيجازٍ لا يصرَّح معهُ بتمام القالب اللفظىِّ ، أو إشارةٍ إلى المراد من طرَفٍ خفىّ . على أن أغراض الشعر فى الغالب تكون أخفى من أغراض النثر ، وأبعد تناولاً ، لانتزاع الـكثير منها من الصُوَر الخاليَّة[4] والتماثيل الوهمية ، ولـكثرة ما يعرِض فيهِ من المجاز ، على تفاوت[5] مسافتهِ من الحقيقة ، فضلاً عما للشعر من المقامات الحرِجة التى تضطرّ الشاعر تارةً إلى إحالة الكلام عن وجههِ ، لنزولهِ بهِ على حكم الوزن والقافية .

---

(١) الدأب : العادة والشأن .

(٢) الإغراب : الإتيان بالغريب من ضروب الكلام ، أى عويصه .

(٣) البدويات : أى الأراجيز البدوية .

(٤) الخالية : نسبة إلى الخال ، وهو المخيلة المصورة للفكر .

(٥) تفاوت : تباعد .

ومعلومٌ ما كان للمتنبي من سَعة التصرف فى المعانى ، والاقتدار على الإبداع[١] والتبسط فى جميع أساليب الشعر وفنونه ، والإحاطة بأغراض الحديث وشجونه[٢] بحيث أنه قلما وقعت واقعةٌ ، إلا ذكرتَ للمتنبي بيتاً تتمثل به فيها ، حتى كأنَّهُ كان ينطق بألسنة الحدثان ، ويتكلم بخاطر كل إنسان ، ويخطب فى كل شان فلم يكن من العجيب ، مع كثرة معانيه وازدحامها في خاطرهِ ، ومع تبحُّرهِ فى اللغة وطول باعهِ فى أساليب المجاز ، أن يقع فى بعض كلامهِ إبهامٌ لا يظهر معهُ المقصود ، إلا أنهُ ربما أغرب فى ذلك بأن يُوغِل في طرق المجاز ، حتى يفوتَ السامِعَ غرضهُ ، أو يتَّفق لهُ المعنى الكبير يحاول إدماجه فى اللفظ اليسير ، فيبالغ فى الإيجاز ويضيّق اللفظ على المعنى ، حتى لا يبقى للنظر إليه مجاز ولا للفكر فيهِ مجال . فإذا انتهى الشارح إلى مثل ذلك ، لم يتأتَّ لهُ فهم المعنى وتمثيله ، إلا بالتأويل والتبديل والزيادة على لفظ البيت . وربما اضطُرّ إلى الزيادة على المعنى أيضاً بما يتمم صورتهُ ويسدُّ خَصَاصه[٣] . وناهيك ما هناك من سعة وجوه الاحتمال ، وضيق مسافة الإشكال ، مما تحار عندهُ بصائر النُقَّاد ، ولا يُقطَع فى جنبهِ بمراد. ولعلّ هذا هو المقصود فى قول من يَنسُب خفاء معانيهِ[٤] إلى الدقّة والابتكار[٥] . لكنك إذا تحققت ، وجدت ذلك كلهُ غير خارجٍ عما سبق الكلام عليهِ من الإبهام فى صُوَر التعبير ، ووقوع اللفظ من دون مرمى[٦] المعنى .

---

(١) الإبداع : الإيجاد .

(٢) شجون الحديث : أغراضه المتنوعة .

(٣) الخصاص : الخلل .

(٤) أى معانيه البعيدة غور الفهم .

(٥) الابتكار : الإتيان بالشىء الجديد .

(٦) مرمى المعنى : المقصد الذى يرمى إليه المعنى .

وتبين للشيخ غموض فى شعر المتنبى عندما انتدب نفسه لإتمام الشرح الذى كان قد بدأه أبوه الشيخ ناصيف فأعمل الفكر فى الكشف عن هذا الغموض فوفق إلى غرضه غاية التوفيق ، كما يتضح لنا ذلك من قوله :

وإنما الغرض من هذا الفصل الكلام على شعرهِ من حيث هو كلامٌ تراد منهُ المطابقة بين المسموع والمفهوم ، فأذكر ما لهُ من إجادةٍ أو تقصير فى استخدام الألفاظ ، من حيث هى قوالب للمعانى ، مع بيان الحدّ الذى جرى إليهِ فى ذلك . ومنزلة شعرهِ من هذا الوجه مما يرجع فى الأكثر إلى أدب الكاتب وصناعة اللغوىّ ، ويكون مرمًى لنظر علماء المعانى وأصحاب الترسُّل فى صياغة اللفظ وتقديرهِ على المعنى . وهذا مما ألمَّ[1] بهِ بعض المتكلمين على ديوانهِ ، إلا أنهم ، على الغالب ، يشيرون إليهِ من جانب البحث ، ولم أجد من تفرَّغ لإشباع الكلام فيهِ ، مع أنهُ لم يشرح هذا الديوان شارحٌ إلاَّ خبط فى دياجير[2] لفظهِ وهام فى تيه تعبيرهِ ، فأخذ بين تقديرٍ وتأويل وتخريجٍ وتعليل ، مما يقضى بالعناء الثقيل ، إلى أن يفرغ منهُ وفى نفسه منه أشياء . والعجب أن كثيراً من خاصة الناس ، فضلاً عن عامتهم ، ممن يذهبون إلى تفضيل المتنبى على سائر الشعراء ، يرون أنهُ إنما نال هذه المنزلة وانفرد بالمزية على غيرهِ ، لخفاء معانيهِ وبعد مأتاها ، وكثرة ما يحتمل كلامه من وجوه التفسير وضروب التأويل ، وأنهُ بهذا فضَل الشعراء وأُشير إليهِ من بينهم بالتبريز[3] والسبق ؛ حتى إن الواحدى ، رحمهُ الله ، مع وفرة فضلهِ وطول باعهِ فى صناعة الأدب وسعة علمهِ بمذاهب الشعر ، يقول فى خطبة شرحهِ فى الكلام على المتنبى ما نصهُ : « على أنهُ كان صاحب

---

(١) ألم بالشى : فهمه وعرفه .

(٢) الدياجير : ج ديجور ، ظلمة والمراد غريب اللفظ وعويصه .

(٣) التبريز : التفوق .

معانٍ مخترعةٍ بديعة ، ولطائف أبكارٍ منها لم يُسبَق إليها ، أنيقة ، ولهذا خفيت معانيهِ على أكثر من روى شعرهُ من أكابر الفضلاء والأئمة والعلماء ، حتى الفحول منهم والنجباء[1] : كالقاضى أبى الحسن الجرجانى ، وأبى الفتح عثمان بن جِنّى ، وأبى العلاء المعرّىّ ، وأبى علىّ بن فُورَجّة البَرُوجُردىّ ، رحمهم الله تعالى ، وهؤلاء كانوا من فحول العلماء ، وتكلموا فى معانى شعرهِ ، مما اخترعهُ وانفرد بالإعراب فيهِ ، وأبدعه ، وأصابوا فى كثيرٍ من ذلك ، وخفى عليهم بعضهُ فلم يبن لهم غرضهُ المقصود ، لبعد مرماهُ وامتداد مداهُ » . . . إلى آخر ما ذكرهُ فى هذا المعنى وأشبع القول فيهِ . وما أرى هذا الكلام منه إلاَّ صدًى للمشهور وحكايةً للمتداوَل ، وإنما سبق السماعُ فيهِ الاختبار ، وغلب التقليد على صادق الاعتبار . وإلاَّ فليس ما ذكرهُ من دقة معانيهِ واختراعها هو العلة فى خفاء تلك المعانى ، بدليل أنك متى شرحت معنى البيت بما هو أبيَن من لفظهِ ، وبعبارةٍ أخرى : متى صوّرتهُ باللفظ الذى حقّهُ أن يصوَّر بهِ ، ذهب خفاؤهُ مهما كان دقيقاً ، وأشرِبهُ الفهم على غير كلفةٍ ولا عناء . والمعانى الشعرية ليست من قبيل الأسرار الصوفية[2] ، أو القضايا التعليمية التى تقتضى دقة نظرٍ وجهد ذهنٍ فى تفهُّمها وإنما هى معانٍ طبيعية تدركها البداهة بأدنى رمز . والاختراع ، من حيث هو ، لا يقتضى الخفاء ، وإلاَّ لخفى أكثر شعر المتقدّمين ممن سبقوا إلى ابتكار المعانى ، مع أنك لا تكاد ترى فى كلامهم ما غاص فى الإبهام ، وحسرت[3] من دونهِ الأفهام ، إلى الحدّ الذى تراهُ فى بعض شعر المتنبى ، بل متى كان الكلام مُفرَغاً فى قوالب من الوضع لا يخرج عنها ، جارياً على سُنَّةٍ[4]

---

(١) النجباء : جمع النجيب ، الذكى .
(٢) الأسرار الصوفية : التى تؤول على غير ظاهر لفظها .
(٣) حسرت : تعبت .
(٤) السنة : الطريقة .

من التعبير لا يتعدَّاها ؛ وكانت تلك القوالب وهـذه السنّة معروفةً عند السامع ، فقلما يتخلف المعنى عن اللفظ إلا بمقدار ما تحيط بهِ الرويّة ، و يتناولهُ الذهن . ولـكن ما ذُكر للمتنبى ، من خفاء المعانى وغموضها ، واردٌ على الغالب من قبيل الإبهام فى اللفظ ، والتعمية[1] فى صورَ التراكيب و إلباس المعنى غير ثو به الذى تظهر به تقاطيعه ، و إنزاله فى غير منزله الذى يُقرع عليه بابه ، وهى طريقة له اختطّها لنفسه وأكثر من التعمل[2] لها والنزوع[3] إليها . و إذا اعتبرت جملة شعره وجدت ذلك لا يختصّ منــــه بمواضع الدقة والاختراع ، بل كثيراً ما ترى الأمر ، بعد التحقيق ، ناطقاً بالخلاف واقعاً على العكس ؛ فإنك إذا تفقدت أبياته من هذا الضرب ، وعانيت استخراج ما فيها ، إلى أن يستقيم لك وجهٌ من الأوجه التى يحتملها ، لا تـكاد ترى وراء ذلك كبير أمرٍ ، بل قلَّ أن ترى له بيتاً قد خفى سرّه و بعُدَ مغزاه إلَّا وهو على الأكثر من ساقط شعره ومُبتذَل معانيه ، وكأنه يحاول أن يخرجه إلى الإغراب[4] ، وشتان بين الإغراب اللفظى والإغراب المعنوىّ. ور بما كان المعنى، من مثل ذلك ، مسبوقاً فيحاول أن يبعد به عن أصله و يغيِّر ديباجته بغير لونها فيفسد عليه وكثيراً ما يقع له ذلك من استعمال اللفظ فى غير موضع استعماله ، أو حذف شىء فى غير مواطن الحذف ، أو تشو يش التركيب بالتقديم والتأخير فيما حقّه العكس ، أو زيادة حشوٍ[5] يفرّق بين أجزاء المعنى . ولذلك فإنك ترى أكثر هذه النظائر فى شعره قد ظهر عليها أثر الصنعة ،وتجاذبها التكلُّف والتعقُّد ،حتى تخرج عن سَنَن الفصاحة وطريق البداهة إلى

---

(١) التعمية : عدم الوضوح .

(٢) التعمل : التصنع .

(٣) النزوع : الميل .

(٤) الإغراب : الغموض .

(٥) الحشو : الكلام الذى لا معنى له فى الجملة .

ما يُدخِلها فى الركاكة ، ويميل بها إلى اللغو والخطاء . وهذه الوجوه وأشباهها هى مورد أكثر ما يُرى فى شعره من تلوُّن[1] الاحتمالات ، واختلاف مذاهب التأويل . وأنا أورد لك ههنا بعضاً من الأمثلة على ذلك ليُعْتبر بها غيرها مما يُرَى فى سائر الديوان ، ثم أورد بعضاً مما جرى بهِ على الضدّ من ذلك ليتبين موقع كلٍّ من الطرفين بصاحبهِ ، كما قال : وبضدّها تتبين الأشياء . فمن تلك الأمثلة قولهُ :

فتى ألف جزءٍ رأيهُ فى زمانهِ　　أقلُّ جُزَىء بعضهُ الرأىُ أجمعُ

وقد ركب فى هـذا البيت ، من التقديم والتأخير والحذف والإبهام ، ما لا يباح مثله فى أساليب الكلام، حتى إنك إذا حلَّلت تركيبهُ النحوىّ ، وجدتهُ باقياً على غموضهِ ، ولا يظهر لك الغرض منهُ إلا بعد إطالة النظر وإعنات الرويّة . وصورتهُ بعد الحلّ : هو فتىً رأيهُ فى زمانهِ ألف جزء ، أقل جزء منها ، بعضهُ الرأى أجمع . فتأمَّلْهُ . وإنما ورد عليهِ ذلك من قِبَل ما فيهِ من تداخل المعنى ، وطول سلسلة الأجزاء بسرد أربعة ابتداءات فيه قد أخذ بعضها برقاب بعض ، وصارت كالشىء الواحد،وهذا مما لم ينبّه عليه علماء المعانى. وحينئذٍ فلا بدَّ للشارح، مع تأويل ما فيه من المجاز والكشف عن المبهم[2] ، من تفصيل المعنى وتقطيع أجزائه،بأن يقال: هو فتىً ، لو اعتُبِر رأيه فى أحوال زمانه ألف جزء ، لكان أقل جزءمن هذه الأجزاء، يعادل جزءٌ منه كل ما عند الناس من الرأى. وحاصل ما فيه: أن الممدوح أعلم الناس بأحوال الدهر . وأين هذا المعنى من هذه الألفاظ وما ركبه فيها من المعاظلة والتكلف والتعسف[3] وكدّ ذهن السامع بتتبع قواعد النحو

---

(١) تلون الاحتمالات : تنوع الأغراض والمقاصد .

(٢) المبهم : الغامض .

(٣) التعسف فى الكلام : أخذه على غير هداية .

والمجاز ، والارتباك فى حسابٍ طويل لا طائل تحته ، حتى يستخرج منه هذا المعنى المبتذل[١] .

٣ – إبرهيم اليازجى العالم

ا – فى الفلك

القمر

أولع الشيخ بعلم الفلك فدرسه دراسة صحيحة وجرت له مراسلات مع فلاماريون العالم الفلكى الفرنسى وهذا نموذج مما كتبه :

لا جَرَم أن أول ما يَبدَه[٢] الناظرَ من مرأى القمر ، وهو فى أوان البدر ، وما حواليه ، أنه يراه على خلقة وجه الإنسان ، فيه العينـان ، والحاجبان ، والأنف، والفم، وذلك بما يتخلل سطحَه من المَحْو، أى السواد المنتشر على وجهه ، بحيث يتبادر منه إلى الخيال هذه الهيئة الغريبة . فهو فى ذلك على حدّ ما يُتخيّل أحياناً فى قِطَع الغيم المتراكمة[٣] ، من هيئات الأناسِى[٤] والدّوابّ وغيرها ، بما يعرِض لها من اختلاف الأشكال وما يتخللها من الظِّلال فى جنب ما يقع عليها من ضوء الشمس . وهذا المنظر ، فى القمر ، يستمرّ من لَدُن طلوعه من المشرق حتى يبلغ الزوال ؛ فإذا مال بعد ذلك وانقلب إلى جهة المغرب ، تبدّل منظره ، واستحال إلى صورة رجلٍ قائمٍ على ساقيه ، وقد مدَّ ذراعيه إلى الأمام ، كأنه يدافع بهما . إلا أن كل ذلك إنما يكون فى نظر العين المجرَّدة ؛ فإذا نظر إليه ،

(١) المبتذل : المنحط عن رتبة الفصاحة .

(٢) يبده : يفاجىء .

(٣) المتراكمة : المتكدس بعضها فوق بعض .

(٤) الأناسى : الناس .

ولو بمنظارٍ ضعيف ، انتسخ ذلك بجملته ، ولم يبقَ له أثر .

ثم إن هذا المحو[١] ، كما كان سبب تضليلٍ للأمم الأولى ومن بقى على شاكلتها ليومنا هذا من العامّة ، فقد كان محلّ حَيْرةٍ للعلماء وأهل البحث منهم ، وقد اختلفوا فى أمره اختلافاً بعيداً ، وافترقوا فى ماهيَّته[٢] على مذاهب نورد بعضها تفكهةً للقرّاء . فمنهم من ذهب إلى أن ذلك ناشئٌ عن شكل القمر وخلقته ، إذ هو مخلوقٌ على هيئة وجه الإنسان ، على نحو ما تقوله العامَّة ؛ فهو ، عند هؤلاء القائلين ، تمثالُ رأس ضخم بمنزلة رأس أبى الهول مثلاً . وزعم آخرون أنه شَبَحُ ما ينطبع فيه من السُفليّات من الجبال والبحار ، يعنون ما فى الأرض من ذلك ، وهذا مبنىّ على أن القمر جِرمٌ صقيل كالمرآة ، بدليل عكسه لضوء الشمس . وقال غيرهم : إنه السواد الكائن فى الوجه الآخر منه ، أى النصف المظلم الذى لا يقع عليه ضوء الشمس ، وهو قول من يزعُم أن الكواكب أجسامٌ شفّافة . وهناك مذاهب أخرى ، لا تقِلّ غرابةً عن هذه ، كانوا يقولون فيها بالحَدْس[٣] ، ويبنونها على قواعد فلسفة ذلك العصر ، مما لا محلّ للإفاضة فيه فى هذا الموضع . والصحيح ، وهو الذى يُشاهَد بالآلات المعظِّمة ، أن بعضه لون الظلّ الذى تلقيه جباله على وهاده وبسائطه ، وأكثر ما يكون ذلك وهو فى أحد التربيعين وما إليهما ، لوقوع شعاع الشمس عليه حينئذ منحرفاً ؛ والبعض الآخر لون صحاريّه، وما يتخلَّل جبالَه من الأتربة والرمال وبقايا الخَلْق الداثر[٤] . وأما فى أوان البدر الذى يكون فيه صَفْحهُ[٥] المواجه لنا مقابلاً للشمس ، وحين يكون ظلّ

---

(١) المحو : غياب قسم من القمر .
(٢) ماهيته : أصله ونوعه .
(٣) الحدس : التخمين والظن .
(٤) الداثر : البالى .
(٥) صفحه : جانبه ووجهه الظاهر .

جباله محجوباً عنا بقِمَم تلك الجبال أنفسها ، فلا كلام فى أنه لون تلك الأتربة .

أما شكل القمر ، فالظاهر لنا أنه كُرَوى[١] على الجملة ، إلَّا أن الذى يستقبلنا منه ، إنما هو أحد صَفْحَيه دون الآخر ، إذ هو يوجِّه إلى الأرض جهةً واحدةً أبداً ، كما يظهر ذلك بمراقبة مَحْوه ، وتتبُّعِه من أول الشهر إلى آخره . وأما الجهة الأخرى فلا يكاد يُرى منها إلَّا الشىء النزر من أطرافها لأسبابٍ ليس هذا موضع بيانها ، ولذلك لا يُعلم شكله من تلك الناحية ، و بالتالى لا يُعلم قُطْره[٢] المسامت[٣] لخط النظر . قالوا : وعلَّة ذلك قوَّة جذب الأرض له وممانعتها إياه من الدوران على نفسه إلا فى القدر الذى يدور به أحد وجهيه حول الأرض ، فتكون له حول نفسه دورةٌ إضافية يُتمُّها مرةً فى الشهر عند تمام دورته حول الأرض . على أنه قد رُؤى أحد أقمار المُشترى ، وهو أقربها منه ، مستطيلاً من القُطر القائم على السيّار ، فهو أشبه بهيئة البيضة ، وهو أيضاً لا يوجِّه إلى السيَّار إلَّا وجهاً واحداً . فغير بعيدٍ أن يكون قمرنا كذلك ، و يكون ما ذكر هو العلَّة فى وحدة اتجاهه إلى الأرض .

ولما كان القمر يدور حول الأرض ، و يدور معها حول الشمس ، لزم بالضرورة أن يكون القمر تارة بيننا و بين الشمس ، وهو أوان المحاق ، فلا تتأتَّى لنا فيه رؤيته ، إذ يكون الوجه المستنير منه إلى الشمس ، والوجه المظلم إلى الأرض . وتكون الأرض تارة بينه و بين الشمس ، وهو أوان البدر ، وحينئذٍ نرى كل سطحه المستنير لوقوعه فى استقبال الشمس . وتارةً تكون الأرض والقمر متحاذيين على بعدٍ واحد من الشمس ، وهو أوان التربيع ، فنرى نصف السطح

---

(١) كروى : بشكل دائرة .

(٢) القطر : الخط المستقيم الذى يقسم الدائرة ومحيطها .

(٣) المسامت : المساوى باتجاه .

الموجَّه منه إلينا لوقوع النصف الآخر فى جهة الفضاء. وكما أننا نرى القمر متشكلاً بهذه الأشكال ، فلو وقف ناظر على سطح القمر المواجه لنا ، رأى الأرض كذلك ، أى يراها بدراً عندما يكون القمر فى المحاق ، ويراها فى المحاق عندما يكون هو بدراً ، وأما فى التربيع فالمنظر بينهما واحد حتى يجاوزاه ، فيعود إلى الاختلاف شيئاً فشيئاً ، إلى أن يصير أحدهما بدراً والآخر فى المحاق .

الزُّهَرَةُ

لا جَرَم أنه إذا كان ، بعد الشمس والقمر ، نجمٌ حَرِىٌّ بالعبادة ، فأحرَى النجوم بذلك الزُهَرة[1] ، لما أنها أعظم الكواكب نوراً ، وأصفاهنَّ شُعاعاً ، لا يدانيها فى ذلك إلاَّ المشترى والشِّعْرى اليمانية ؛ بَيْدَ أنهما إذا قوبلا بها عن كَثَب ، كسفت بهاءهما بتألُّق شعاعها ، ولا سيما عند مُعظَم نورها ، فإنها تظهر حينئذٍ والشمس فى كَبِد السماء . وقد عبدها جميع أمم الأرض قديماً . حتى لا تكاد تبحث فى تاريخ أمةٍ إلا تجد لتلك العبادة آثاراً فى مسطوراتها ومخلَّفاتها من هياكل وتماثيل وغيرها . وممن عبدها العرب ، وكان لها معبدٌ بصنعاء[2] اليمن ، وهو قصر غُمدان المشهور ، بناهُ على اسمها الضحَّاك . ولبث بيت عبادةٍ لها حتى هدمه عثمان بن عفّان .

والزُهَرة ، ولا شك ، أول كوكبٍ عُرف من السيّارة لسرعة حركتها فى فلكها ، بحيث إنها لا تثبت مدة أسبوعين فى موضع واحد من السماء . وهى تكون تارةً نجم مساء ، وتارةً نجم صباح ، تبعاً لموضعها من الشمس،لأنها إذا كانت إلى

---

(١) الزهرة : اسم لنجمة يعرفها العامة باسم نجمة الصباح وقد عبدها الأقدمون وقدموا لها القرابين وأقاموا لها الهياكل ولا سيما فى لبنان .

(٢) صنعاء : عاصمة اليمن .

شرقيّ الشمس ، ظهرت بعد مغيبها في الأفق الغربي ، فكانت نجم مساء . وهي تظهر أولاً لمحةً ، ثم ترتفع يوماً بعد يوم حتى يبلغ معظم ارتفاعها ٤٨ درجة ، وحينئذٍ تلبث فوق الأفق ما يزيد على أربع ساعات ، و بعد ذلك تعود فتَنزِل كما ارتفعت حتى تمر من أمام الشمس ، فتبرز من غربيّها ، وتظهر قَبْلها فى الأفق الشرقيّ ، فتكون نجم صباح . وتستمرّ فى الشرق كذلك ، ثم تعود فتبرز[1] من وراء الشمس فى الأفق الغربيّ ، وهلمَّ جرًّا .

وكانت الزهرة قديماً ، كبقية أخواتها من السيّارة ، تُعتبر مضيئة بذاتها ، لأنهم لم يروا تغيُّراً فى منظرها ، فكانت عندهم فى حدّ سائر النجوم الثوابت . وأول من خالفهم فى ذلك كوبِرْنيكس الفلكى المشهور من رجال القرن السادس عشر، فإنه لما بدّل هيئة النظام البطليموسى[2] ، جزم بأن السيارات ينبغى أن تكون كُرَاتٍ مظلمة كالأرض، وأن ما ترسله إلينا من النور، إنما هو منعكسٌ عن أَشعَّة الشمس . فاعتُرِض عليه بأنه لو كان الأمر كذلك ، للزم أن يظهر كلٌّ من الزهرة وعطارد بأوجهٍ مختلفة كأوجه القمر ، ولما لم يسعه البرهان على ذلك من الطريق الحِسِّى ، بقى قوله مهملاً ، حتى حققه غاليلاى فى القرن التالى بعد اختراعه لِلْمِرْقَب[3] سنة ١٦١٠م، فإنه أول ما وجهه إلى الزهرة، فظهرت لهُ فيها كلّ رُؤى القمر من الهلال إلى البدر .

أمَّا بُعد الزهرة من الشمس ، فهو ٧٢٣ من بُعد الأرض ، وفلكها قريبٌ من الاستدارة التامة ، لأن إهِلِيلَجِيَّته[4] لا تزيد على ٠٠٦٨ ، وهى تتم دورتها

---

(١) تبرز : تظهر .

(٢) البطليموسى : نسبة إلى بطليموس الفلكى اليونانى صاحب كتاب المجسطى عاش قبل الميلاد.

(٣) المرقب : النظارة التى يراقب بها الأجرام السماوية .

(٤) الأهليلجية : أى الاستدارة مع شىء من الطول .

حول الشمس فى ٢٢٤ يوماً ، أو سبعة أشهر ونصف ، تقطع فى اليوم منها نحو ٠٠٠ ٨٥٠ ١ ميل أو ٢١ ميلاً فى الثانية ، فهى أسرع من الأرض قليلاً . إلا أنه لمَّا كانت الأرض مُشايعةً للزهرة فى مسيرها إذ كلتاهما تتّجهان من الغرب إلى الشرق ، لزم أن لا نراها أتمَّت دورتها إلَّا بعد ٥٨٤ يوماً أو تسعة عشر شهراً ونصف ، وهى مجموع سنتى الأرض والزهرة معاً ؛ غير أنها تخفى نحو خمسة أشهر من هذه المدة تكون فيها محتجبة بأشعة الشمس ، لأنها تقترن بها فى كل دورةٍ مرَّتين ، تخفى فى كلٍّ منهما نحو سبعين يوماً ، نصفها قبل الاقتران ، والنصف الآخر بعده ، وتظهر لنا سبعة أشهر نجم مساء ، وسبعة أشهر نجم صباح .

وأمَّا بُعدها عن الأرض فيختلف كثيراً ، فإنها فى الاقتران الأدنى تبعد نحو ٠٠٠ ٠٠٠ ٢٥ ميل ، وفى الأعلى تبعد نحو ٠٠٠ ٠٠٠ ١٦٠ ميل ، وذلك أنها فى الوضع الأول تكون بين الأرض والشمس ، فلا يكون ، بين الأرض و بينها إلَّا عرض المنطقة الفاصلة بين الفلكين ؛ وفى الثانى تكون وراء الشمس ، فيكون بيننا و بينها مسافة قُطر فلكها مع عرض المنطقة المذكورة . و يختلف قطرها المَرْئىُّ بحسب ذلك ، فيكون بين ٦٥ً و١٠ً ، إلا أنها فى الحال الأولى تكون فى المحاق ، أى يكون الموجّه إلينا منها نصفها المظلم ، فلا نراها ؛ وفى الحال الثانية تكون بدراً ، إلا أن قطرها الظاهر حينئذٍ ، لو أمكن أن نراها ، يكون أقلَّ من سدس ما يكون عليه وهى فى حال المحاق . ولذلك فإن معظم نورها لا يكون فى شىء مما جاور هاتين الحالتين ، ولكن أنور ما تكون عليه إذا بلغ تباينها ، أى بُعدها عن الشمس شرقاً أو غرباً ، ٥ ، ٣٩° وذلك قبل الاقتران الأدنى ، أو بعده بمدة ٦٩ يوماً ، وحينئذٍ يكون المنوَّر منها ربع قرصها ، فتكون

كأنها هلال أربعٍ . ومتى كانت كذلك فقد تُرى فى إبّان[1] النهار ، كما سبقت الإشارة إليه ، إلا أن ذلك يختلف فيها بين سنة وسنة ، تبعاً لميل فلكها ؛ وهى تعود فى كل ثمانى سنين إلى الاقتران بالشمس فى الموضع نفسه من السماء ، لأنها حينئذٍ تكون قد أتمت خمس دورات من دوراتها المرئيَّة ، فتعود رؤيتها من الأرض إلى مثل ما كانت عليه فى الموعد السابق .

وأمَّا دوران الزهرة على نفسها ، فما اشتغل العلماء وأهل الرصد فى تحقيقه زمناً مديداً ، واستخدموا لذلك أعظم المراقب[2] ، فلم يحصلوا من معرفته على يقين . وذلك أن ظاهر هذا السيّار شديد البياض واللمعان ، لا يكاد يبدو عليه ظلّ ، ولا تظهر فيه سِمَةٌ واضحة الحدود ، بخلاف غيره من الأجرام[3] المتحركة حولنا ؛ فإنَّ كلَّ واحدٍ منها يُرى على سطحه شىء من السواد كالمحو الذى نراه على وجه القمر ، فإذا تحرَّك الجرم على محوره ، انتقل ذلك السواد من موضعه حتى يخفى وراء الجرم ، ثم يعود من الناحية الأخرى حتى يرجِع إلى حيث كان ، فيكون قد تمّ هنالك دورة كاملة ، و بمثل هذا عيَّنوا الدورة اليومية فى السيَّارة[4] ، وعرفوا مَيْل محاورِها على سطوح أفلاكها ، ومنه عُلِم أن القمر لا يدور على نفسه دورةً مستقلَّة . وقد عُنى الراصدون بذلك فى الزهرة منذ اختُرِعت الآلات المقرِّبة ؛ وممن عانى ذلك الفلكىُّ كاسينى ، فإنه بعد جهد المراقبة ، ظهر لهُ شىء من المحو على سطحها ، فبقى يراقبه على أيامٍ متعدّدة ، فوجده كلَّ يوم يظهر فى مثل الساعة من الأمس فى مكانه الأول على فَرق زهيد تَمثّل له ، فحكم بأنها تدور على نفسها

---

(١) إبان النهار : أول النهار .

(٢) المراقب جمع المرقب : المنظار الذى ترقب به النجوم « تلسكوب » .

(٣) الأجرام جمع جرم : الكوكب والنجم .

(٤) السيارة : النجم المتحرك الذى يدور حول الشمس .

فى ٢٣ ساعة و١٥ دقيقة ، وذلك سنة١٦٦٦م . ثم تتبّع العلماء بعدهُ تحقيق ذلك، فنظر فيه بيانكينى سنة ١٧٢٦ م فأحصى لها ٢٥ دورة فى ٢٥ يوماً و ٨ ساعات ، فخرج لكل دورةٍ ٢٣ ساعة و٢٢ دقيقة .

وتتابعت الرُّصود من غير هذين ، فكان الخارج متقارباً على فرق ثوانٍ قليلة ، وحينئذٍ حكموا بأنَّ سنتها تكون مؤلفة من ٢٣١ يوماً من أيامها ، وهى السنة النجمية ؛ وأن سنتها الشمسية تكون ٢٣٠ يوماً . ثم راقبوا مِحْوَر دورانها ، وحدَّدوا ميله على دائرة البروج ، فجعله بيانكينى[1] ٧٥° ، وجعله غيره ممن جاء بعده ٥٥° ، وهو آخر ما جروا على اعتباره . وقد بنوا على ذلك مباحث وتفاصيل شتى فى تعيين المناطق والفصول ، وطول الأيام وقِصَرها ، وما يتبع ذلك من التفاوت فى الحرِّ والبرد ، وحالة الأحياء هناك ، من النبات والحيوان ، إلى غير ذلك من الأحوال المترتبة على هذا الوضع ؛ إلى أن أعلن شياباريّلى الفلكى الإيطالى سنة ١٨٩٠م نتيجة مراقباته الطويلة ، فزعم أن هذا السيَّار لا يدور على نفسه الدورة اليومية ، ولكنه فى دورانهِ حول الشمس ، يوجِّه إليها أحد صفحيه على حدّ حال القمر مع الأرض ؛ وعليه فيكون أحد نصفيه معرَّضاً أبداً لأشعة الشمس ، والنصف الآخر فى ظلمةٍ دائمة . فكان ذلك مدعاةً للفلكيين إلى معاودة الرصد والتحقيق ، فمنهم من وافق الفلكى المذكور ، ومنهم من نازعه ، و إلى الآن لم يقع الإجماع على رأيٍ فى هذه المسئلة الغامضة[2] ، ولا سيما وأن هذا السيَّار ، على ما ثبت لهم بالمشاهدة وتحليل الطيّف ، يسبح فى ضمن حجاب كثيف من جوّه المتلبِّد بالأبخرة والغيوم ، بحيث إن أشعة الشمس تنعكس عن هذا الجوّ ، لا عن سطح السيَّار . وحينئذ فإنَّ هذا الأمر سيبقى محجوباً بحجاب الريب ، إلى أن

---

(١) بيانكينى : عالم فلكى فرنسى .

(٢) الغامضة : الصعبة التى لم تعرف .

يتلطَّف ما هناك من الأبخرة المتكاثفة ، ويَشِفّ عما تحته ، ولعلّ ذلك لا يتمّ إلّا فى ألوفٍ من السنين ، والله أعلم .

ب — فى تاريخ العلم

العلوم عند العرب

إن دولة العلم عند العرب كانت دولةً رفيعة العماد ، فسيحة الظلال ، حافلةً بالألوف من الدارسين والباحثين والمصنّفين ، والعاكفين على الاكتشاف والاستنباط ، والضاربين فى مناكب الأرض بحثاً عمّا أودعتها الطبيعة من الآثار ، والنافضين[1] لآفاق السماء تطلُّعاً[2] إلى ما هنالك من الأسرار . لم يدعوا علماً إلا ولهم فيهِ يدٌ ، ولا بحثاً إلا ولهم إليهِ قدمٌ ، فضلاً عما كان فيهم من الخطباء والشعراء والأدباء والكتّاب ، وما كان عندهم من بديع الصنائع وغريب الفنون واتساع التجارة ونموّ الزراعة . وكان العلم مصباحاً لجنودهم فى كل بلادٍ وطئتها حوافر خيلهم وافتتحوها بسيوفهم ، حتى امتدّت حضارتهم من أطراف آسيا إلى أقاصى إفريقيا وقلب أوربا . أَجَلْ[3] ، إن من تتبع العلوم التى كان العرب يتداولونها بينهم ، وجدها بأسرها مقتبسة[4] عن كتب اليونان إلا قليلاً اقتبسوهُ عن كتب الهند والفرس . ولم يثبت أنهم وضعوا علماً ولا أحدثوا فى أحد العلوم فرعاً مهمًّا ، ولكنهم أوضحوا مبهماتها[5] ووسّعوا مباحثها وصحّحوا كثيراً من

---

(١) النافضين : من نفض المكان ، تبين ما فيه حتى عرفه .

(٢) التطلع : الاستشراف ، أى رفع البصر إلى الشىء وتشوف النفس إلى إدراكه ووروده ، والعامة وبعض الكتاب المعاصرين يغلطون فى استعماله بمعنى النظر إلى كل شىء .

(٣) أجل : كلمة جواب بمعنى نعم .

(٤) مقتبسة : مأخوذة .

(٥) مبهماتها : ما صعب وخفى معناه .

مسائلها . ولو لبث الدهر مسالماً لهم إلى هذا اليوم ، لم يبعد أن كانوا بلغوا ما بلغ غيرهم ، ممن تناولوا علومهم وصنائعهم ونزلوا منها منزلتهم . ولسنا نزيد المطالع علماً أن مدة اشتغال العرب بالعلم لم تكن إلّا بضع مئاتٍ من السنين ، كانوا قبلها بقليل أهل نجعةٍ وخيام ، وألّاف باديةٍ وأنعام . فما كادوا يألفون تلك العـلوم ويتصرَّفون فيها تصرُّف أهلها ، بعد أن قضوا السنين الطوال لا يزيدون على تفهُّم مغازيها وحلّ مشكلاتها ، حتى اضطرب حبل دولتهم وانتقضت أحوال جامعتهم ؛ فوقفوا وهم فى أوائل شوطهم . ولا شك أن مثل هذه المدة القصيرة ، مع الحال التى وصفناها ، لا تبلغ أمةٌ فيها زيادة على ما بلغتهُ العرب . وإذا تتبعتَ علوم اليونان ، وجدتَ أنهم لم يصلوا منها إلى المبلغ[1] الذى أخذتهُ العرب عنهم، إلا بعد أن أتت عليهم آلاف من السنين . والذين خلَفوا العرب من الإفرنج ، إنما بلغوا هذا الشوط[2] البعيد ، فى هذا الزمن القصير ، لأنهم تلقوا العـلم فى مدارسهم ، وتلقنوهُ عن أفواههم ، ونقلوا كتبه إلى ألسنتهم مشروحةً مبسوطة المسائل ؛ فلم يقف فى سبيلهم ما يستوقف خطواتهم عن بلوغ الغاية التى ترمى إليها هممهم . وفضلاً عن ذلك فقد أخذوا عنهم كثيراً من المصنوعات : كالورق والبارود والسكر والخزف والزجاج وتصفية المعادن وتركيب الأدوية ، وفنونٍ من النِّساجة والدّباغة[3] وغير ذلك . وعلى الجملة فقد تناولوا تمدُّنهم تامًّا بحيث إنهُ لم يتقوض بناؤهُ عند العرب ، إلا وقد قامت حجارته بعينها عند مجاوريهم .

أمّا كتب العرب فهلك أكثرها فى الحروب والغارات ، فمنها ما أتلفهُ العرب أنفسهم ، كمكاتب الأندلس التى يقال إن المنصور أحرق أكثرها ، وسائرُها

---

(١) المبلغ : القدر .

(٢) الشوط : المسافة .

(٣) النساجة : حياكة النسيج .

أحرقه الإفرنج عند استيلائهم على مدن الأندلس ؛ وكمكتبة بغداد التي أهلكها هولاكو[١] في دجلة ؛ ومكتبة الفاطميين ، في مصر ، التي نهبتها جنود الأتراك ، ثم اختطفتها منهم عرب البادية ، فمزقتها واستعملت جلودها نعالاً ، وتركت الباقي في الصحراء ، حتى دفنته الرمال ؛ وما بقي ، بعد هذه الجوائح وأمثالها ، استولت عليه أيدي الإفرنج شيئاً بعد شيء ، كما لا يزال الحال إلى يومنا هذا ، وعمرت بهذه البقية مكاتب أوربا .

وقد فُقد ولا شك ، في تلك الكتب ، شيءٌ كثيرٌ من العلم ، ولكن لا نخال أن هناك علماً ذهب من أصله كما يتوهم بعض المغالين في أمر هذه الحوادث ؛ فإنّا لا نظنّ أنها كانت تشتمل على غير ما يشبه العلوم الباقية ، ولا ذهب بها شيء يُفتقَر إليه في جنب العلم الحاضر ؛ وإن كان ثمة شيء لا يعوَّض ، فلا يكون إلّا من قبيل التواريخ والتراجم وأوصاف البلاد والأبنية وغيرها ، مما درسته[٢] الأيام ؛ ومن نحو دواوين الشعر والخطب وأشباهها ، من مبتكرات القرائح ؛ وهي ولا ريب مما فُقد منهُ شيء كثير . على أننا مهما قدّرنا الخطب فيها صغيراً ، تسليةً وتهويناً ، فلا أقلَّ من ذهاب أسماء كثيرٍ من مصنّفي تلك الكتب واندراس ذكرهم ؛ وكانوا ولا شك ألوفاً كثيرة من العلماء والمصنّفين ، ممن كانوا فخراً لهذه الأمة ، وعنواناً على عظيم مجدها وارتقائها في سلَّم المدنيَّة والعلم . على أن ذهاب تلك الكتب لم يكن مما يؤسف عليه ، لو بقيت الأمة جارية في سبيل سلَفِها ، ولا ذهابها هو الذي حطّ الأمة من منزلتها وذهب بعلومها ، ولكن الرُزْء[٣] ، كل الرزء ، ما ابتُليت بهِ الأمة من الخمول[٤] والقعود ؛ وما توالى

(١) هولاكو : فاتح تترى فتح بغداد زمن العباسيين سنة ٦٥٦ هـ وكان آخرهم المعتصم .

(٢) درسته الأيام : ذهبت به ولم يبق له أثر .

(٣) الرزء : المصيبة .

(٤) الخمول : الكسل والتأخر .

عليها من التدابر والشِّقاق ؛ وتعاورها من تسلُّط يد الأجنبيّ دهراً بعد دهر ، حتى اضمحلّ العلم منهـا على التوالى ، ولم يبق منذ مئاتٍ من السنين ما يُذكر إلاّ علوم الدين ، قُصِرت عليها الهمم ، ووقفت عندها المدارك ، وتحيّزت بها حلقات الدروس . ثم اندرس الدين كغيرهِ إلا عند الخاصة وقليلٌ ماهم ، فلم يبقَ إلاّ التعصب يزداد عصراً بعد عصر وسنةً بعد سنة ، فكأن تلك العلوم كلها تقمَّصت[1] الدين لباساً ، ثم استحال الدين إلى تعصبٍ يقوى كلما ضعفت مدارك أهلهِ ، ويتأصل فى القلوب كلما خلت من العلم ؛ فهو اليوم مجموع علوم الدنيا والآخرة ، والخلَفُ من تلك العلوم بأسرها . والله يداول الأيام بين الناس ، سبحانهُ ، لا معقِّب لحـكمهِ ، وهو الفاعل المختار .

ج – فى العلم الطبعى

كذب الحس وكذب الحواس

يعرِض للإنسان أحياناً ، أن يرى أشباحاً ، أو يسمع أصواتاً لا حقيقة لها فى الخارج ، ولـكنها تتصوَّر له بصورة الحقائق الموجودة ، فلا يشكُّ فى صحّـتها ، وهو من غريب الأسرار المودعة فى الفطرة . وربما كانت تلك الأشـباح أو الأصوات موجودة فى الخارج . ولـكن الحواسّ تؤدِّيها إلى المُدرِكة على خلاف صورتها الحقيقية ؛ وعلى الحالين يكون العقل مكذوباً : إمَّا من قِبَل الحِسّ نفسه ، كما فى الحالة الأولى ، أو من قبل آلته ، كما فى الحالة الثانية .

وكذِب الحسّ من الأعراض الدالة على الاختلاط[2] والعَتَاهة[3] بأنواعها ،

---

(١) تقمصت : لبست قميصاً آخر .

(٢) الاختلاط : اختلاط العقل .

(٣) العتاهة : فقدان العقل . ونقصانه .

إلاّ أنه كثيراً ما يعرِض لأصحّاء العقول ، لـكنه إذا تكرر ولَزِم ، أو كان على وجه يبعد كثيراً عن مقتضى المعقول ، كان ، ولا جَرَم ، دليلاً على اختــلال العقل ، أو مقدمةً لحدوثه . وأَما إذا عرض اتّفاقاً ، أو كان غبَّ انهماكٍ[١] مُفرطٍ فى أمرٍ من الأمور ، أو على أثر شغلٍ عنيف[٢] ، أو وجدانٍ[٣] شديد التأثير ، فإنه يكون عرَضاً ، ثم يزول بزوال سببه . على أنه فى كلتا الحالتين ، لا يكون إلّا عن اضطراب فى أحوال الدماغ ، وتهيُّج عنيف فى العصب ، وهما كثيراً ما يمرّان بغــير أن يؤثِّرا فى العقل أثراً ثابتاً ؛ فيكون بمثابة ما يقع من الهذيان فى الحمَّيات ، ثم يزول بزوالها .

أَمّا حقيقة هذا الشعور ، وكيفية حدوثه ، فمما اشتغل به الحـكماء فى كل عصر وصوّروه على أوجهٍ شتى ، بعضها نَسَخَه[٤] تبــدُّل الآراء العلمية ، و بعضها لا يزال محلاًّ للخلاف والبحث . وقد عرّفه المتأخِّرون بأنه استحالة الفكر إلى شعور ، و بعبارةٍ أُخرى ، تمثل الصور العقلية بهيئة صــورٍ محسوسة . وأَشهر ما ذكروا فى سببه يرجع إلى ثلاثة أقوال : أَحدها أنه نتيجة خللٍ عقليٍّ خاصّ يبتدىء بتهيُّجٍ دماغىّ ، و يحدث عنه اختلاطٌ فى الخياليات ، يؤدِّى إلى فقد التوازن بين القوى العقلية . والثانى أنه عملٌ دماغىّ محض ، أى شعورٌ حقيقىّ ، ينشأ بغير وجود مؤثِّرٍ فى الخارج ، وحينئذ فلا خلل فى العقل ، و إنما الخلل فى جهاز الحِسّ ، بأن يؤدى إلى العقل صوراً زُوريّة ، ويحمله على أن يحكم أحكاماً مُحاليّة[٥] . والثالث أنه أثر شعورٍ سابق ، يتجدد على نفس صورته مع زوال

---

(١) انهماك : تعب .
(٢) عنيف : شديد ، قاس .
(٣) الوجدان : إدراك الشيء بالعقل .
(٤) نسخه : أبطله .
(٥) محالية : مستحيلة أى غير قابلة الحدوث .

المؤثر ؛ فهو نتيجة انقباضٍ (١) فى الدماغ، بحيث يتمثل له الفكر،من غير انفكاك ويكون على هيئة شعور . وهناك أقوالٌ أُخَر لا ترجع إلى حقيقة واضحة ، ولكن على كل حال ، فإن هذا الشعور لا يتمّ ، ما لم يكن ثَمَّة خللٌ فى أعمال الدماغ ، بحيث ينفرد التخيُّل عن الإرادة ، على نحو ما يكون فى حالة الذهول والانجذاب ؛ وحينئذٍ تعمل المتخيلة من تلقاء نفسها ، من غير أن يتوجَّه العقل إلى تأمُّل الصور التى تُمثِّلها ، والحكم عليها .

ومعلومٌ أن بعض المخدِّرات كالحشيش ، إذا استولى على العقل يفعل الفعل نفسه ، وحينئذٍ فمن البيِّن أن من ظهر فيه مثل آثار الحشيش بدون أن يتناوله ، يكون دماغهُ وجهازهُ العصبىّ ، فى نفس الحالة التى يكون عليها شارب الحشيش ، أى فى حالة التهيُّج الشديد ؛ ولا فرق فى ذلك بين أن يكون عن سبب طارىء (٢) من مثل الأسباب المذكورة قبلاً ، أم عن اختلال فى أعمال الدماغ ، فهو على الجملة ، ليس إلاَّ حالة مرَضيةً ، أو حالةً عقلية ليست هى الحالة الطبيعية . وهناك مشابهةٌ أُخرى بين المشاهَدات التى تُرى فى هذه الحال ، وما يعرض من مثلها في الُحلم ، مما يدلّ على أن لكلتا الحالتين مَوْرداً (٣) واحداً ، وهو ما ذُكر من انفراد المتخيِّلة بما تصوِّره للعقل ، وحينئذٍ فهما شىءٌ واحد ، يصحّ أن يقال فيه إنه حُلمٌ فى اليقظة ، أو اختلالٌ فى النوم . ثم إن المشاهَدات المذكورة ، كثيراً ما تعرض للإنسان بعد أن يغمض عينيه ، وقبل أن ينام ، فيرى أشباحاً غريبة ، ويسمع أصواتاً باطنة ، حالة كونه لا يزال مستيقظاً يسمع الأصوات التى حوله ؛ وهى إذ ذاك مَنْزِلةٌ بين الاختلال والحُلم . وإنما يكون ذلك فى

---

(١) انقباض : انكماش .

(٢) طارىء : حادث .

(٣) المورد : المنبع .

ساعة غيبوبة التعقُّل ، حين يدخل الإنسان فى حالة ينتقل منها إلى النوم ؛ ولذلك إذا انتبه ، فعمد إلى تأمُّل تلك المشاهَدات ، تغيب عنه فى الحال ، وهو الدليل على أنها من عمل المتخيلة وحدها ، ولا عمل معها للإرادة التى هى مبدأ التعقل وتميز المـُدرَكات .

وأكثر ما يقع كذب الحسّ ، في مدرَكات البصر والسمع ، لما أنهما أكثر الحواسّ إيراداً للمحسوسات على الحِسّ المشترك [١] ، ولأن أثرهما فى الدماغ أشدّ ارتباطاً بالصور المحسوسة مما يَرِد عن سائر الحواسّ . ويكثر حدوثه فى الأحوال التى يضعف فيها تأثير المحسوسات على الحواسّ الظاهرة : كالظلمة والسكون والإغراق فى التأمُّلات الباطنة ، وما أشبه ذلك ؛ لأن المتخيّلة حينئذ تخلو بالدماغ ، وتصوّر له التماثيل المختلفة من غير أن يكون لها ما يعارضها من الحسّ الظاهر . ولذلك ترى بعض الناس ، إذا انفردوا ليلا ، أو سافروا فى مَجهَلٍ [٢] من الأرض ، تخيَّلوا أشباح ضَوارٍ أو لصوص ، وسمعوا أصواتاً مخيفة ؛ ويكثر ذلك عند من تواترت [٣] على أسماعهم الخُرافات ، واستحوذت على عقولهم الأوهام والأباطيل ، فتتمثل لهم أشباح العفاريت والجنّ والغيلان وأشباه ذلك مما اختُزن فى خيالهم .

وأمَّا فى مدرَكات ما سوى هاتين الحاسَّتين : فلا يقع مثل ذلك إلاّ فى حالة الاختلال العقلى ؛ فإنّ المعتوهين قد يشعرون بروائح وطعوم وهميّة ، ويتخيلون أحياناً أن يداً تلمسهم ، أو أنهم يُضرَبون أو يُوثَقون ، وكل ذلك

---

(١) الحس المشترك : تعبير فلسفى هو القوة الباطنة التى ترتسم فيها صورة الجزئيات المحسوسة بعدما توردها عليها الحواس الظاهرة .

(٢) المجهل : الأرض المنقطعة التى لا ساكن فيها .

(٣) تواترت : جاءتهم بالتتابع .

لا يعرض للأصحّاء إلاَّ ما كان منه نادراً فى الحلم ، وهو ما يؤيّد الشبه بين الحلم والاختلال [١] .

وأمَّا كذب الحواس ، فيكون العقل معه صحيحاً ، لأن المدرَكات تكون متحققةً فى الخارج ، ولـكنها تتأدى إلى العقل على خلاف ما هى فيحكم بمقتضاها . وكذلك الحاسّة تكون سليمةً أيضاً ، غير أنها تلتبس عليها أعراض المحسوسات ، إمَّا لشىء فى المحسوس كما تُرَى العصا المغموس طرفُها فى الماء مكسورةً ، وكما يُرَى السراب ماء ؛ أو لشىء فى الحاسَّة نفسها ، كما يُرَى النجم ذا شعاع متشعب ، و إنما هذه الشُّعَب فى بِلّورية العين . وأما إذا كانت الحاسَّة مَوؤوفة [٢] كما يحدث أحياناً فساد الذوق لحالةٍ مَرَضيّة ، فيتغير بهذا السبب طَعمُ المَذُوقات ، وكما يتفق لبعض الناس أن يفقد الذوق والشمّ بتَّةً ، أو أن لا يفرق بين بعض الألوان كالأحمر والأخضر لم يكن ذلك فى شىء مما نحن فيه .

وكذِبُ الحواس أكثر ما يقع للبصر لاختلاف ما يرد عليه من أعراض المُبصَرات ، إذ به يُدرَكُ اللون والشكل والحجم والمسافة والوضع وغير ذلك . وأكثر ما يخطىء البصر فى تقدير حجم الأشباح إذا اختلف لونها ، كما إذا كان أحد الشبحين أبيض ، والآخر أسود أو قريباً منه ، فإن الأبيض يُرَى أكبر حجماً ، وعلَّته انتشار النور عنه ، حتى كأنه يفيض عن أطرافه ؛ و بعكسه الأسود ، ولا سيما إذا كان محاطاً ببياض ، فإنَّ البياض الذى حوله يسطو عليه ، حتى كأنه يأخذ شيئاً من أطرافه . ولهذا السبب نرى الهلال ، فى أوائله ، أطول عند طرَفيه مما يليه من القسم المظلم المنعكس إليه نور الأرض ؛ ونرى بعض النجوم أكبر من بعض ، تبَعاً لشدة ضوئها ، حتى نتوهم أن لبعضها قُطراً

---

(١) الاختلال : اختلاط فى العقل .

(٢) موؤوفة : أى مصابة بآفة ، والآفة : الشىء الفاسد المرذول .

محسوساً ؛ مع أنها ترى جميعاً بالمِرقب (التلسكوب) أشبه بنُقَطٍ هندسية . وبهذا الاعتبار كان المتقدمون يقدّرون أقطار السيارة أعظم مما هى . فإنَّ تيخو براهى ، مثلاً ، كان يقدِّر حجم الزُهَرة أكبر مما هو باثنى عشر ضِعفاً ؛ وكان كبلر يقدّرهُ أكبر بسبعة أضعاف . ولـكن لما اختُرعت المناظير ، أمكن أن يُرَى كل من السيَّارة والثوابت على حجمه النسبىّ ، لأنها قللت كثيراً من انتشار النور وإن لم تقطعه بالمرَّة .

وهناك أمرٌ آخر ، وهو أننا نرى الشمس والقمر وصُور الـكواكب عند الأفق ، أعظم مما تُرَى بعد ارتفاعها مسافة فى السماء ، وهو من الأمور التى لم يتوصلوا إلى بيان علَّتها على وجه يكفل بالاقتناع ، ولـكنه على كل حال راجعٌ إلى خطإِ البصر ؛ لأن الكبر والصغر فى مرأى الشبح الواحد ، إنما يتأتَّيان عن القرب والبعد ، وليس فى مسافة الشمس والكواكب ما يظهر فيه مثل هذا الفرق . على أنه لو كان هذا مما يؤثِّر فى منظرها ، لوجب أن تُرَى عند الأفق أصغر ؛ لأنَّا لو قسنا القمر وهو عند الأفق ، ثم قسناه وهو فى السَمْت (١) لوجدنا قُطرهُ عند الأفق أصغر بنحو ١ من ٦٠ من قُطره فى السمت ؛ لأنه حينئذ يكون أبعد عن الناظر بأربعة آلاف ميل التى هى قياس نصف قطر الأرض .

ومن كذب البصر أن تظهر الألوان على غير ما هى ، وهو محمولٌ فى الغالب على تعب الشَبَكية (٢) وذلك كما إذا وُضع أمام العين لونٌ أحمر ، ونَظرَت إليه مدةً ، فإن الجزء من الشبكية المتأثر بالأحمر ، يستمرّ بعد ذلك حيناً لا يشعر بهذا اللون ؛ فإذا عُرض على العين ، والحالةُ هذه ، رقعةٌ بيضاء فإنَّ هذا الجزء منها لا يبصر إلَّا اللون المتمّ للأحمر ؛ فيظهر ما يقع عليه من لون الرقعة أخضر .

---

(١) فى السمت : خط مستقيم طولا يكون من الأعلى إلى الأدنى موازياً لرأس الإنسان .

(٢) الشبكية : أى شبكية العين ، وهى أجزاؤها المتداخلة .

ومثلهُ ما إذا كتب الإنسان ، مدة ساعة أو نحوها بالحبر الأحمر ، ثم نظر بعد ذلك إلى صحيفة مكتوبة بالحبر الأسود ، فإنه يراه أخضر . ومما يعسر تعليله فى هذا المقام ، أنه إذا وضع لونان مختلفان ، أحدهما بجانب الآخر ، لا يُبصَران كما لو وُضع كل منهما وحده ، ولكن يُرَى كل منهما كأنه قد أضيف إليه شىء من مُتمّ الآخر . وعليه فإذا وُضع الأحمر بجانب الأخضر ، ظهر الأحمر أشدّ حمرةً ، والأخضر أشدّ خضرةً ؛ وإذا وُضع الأحمر بجانب الأزرق ، يميل الأزرق إلى الأخضر ، والأحمر إلى النارَنْجى [١] .

وأمثلة كذب البصر كثيرة ، منها فى اللون ، ومنها فى الحجم ، أو الشكل ، أو غير ذلك مما ذُكر فلا نطيل بها . وعلى كذب البصر بُنيت صناعة التصوير وتمثيل ما فى الأشباح من دقائق الأجزاء الشاخصة والغائرة المقوِّمة لأشكال الأجسام ؛ وإليه المرجع فى كل ما يرى من الصور البديعة الصنع ، التى يتنافس بها المصورون ، وتُبذَل فيها الألوف من الدنانير . وليس منّا إلّا من رأى منها ما هو بالغٌ أتمّ مبلغٍ من استحكام الصنعة ، حتى قد يتوهم الرسوم المصورة أشباحاً مجسَّمة ، وإنما هى كذلك عند الباصرة ؛ وأمّا عند اللامس فليست إلّا أطلِيَةً ساذجة على ألواحٍ بسيطة . وقس على ذلك ما يتعاطاه بعضهم من الشعوذات المختلفة ، مما حيَّر عقول الأغرار ، وأوهمهم وجود السِيمِياء [٢] والطلاسم إلى غير ذلك .

أمّا كذب بقية الحواسّ ، فهو أقلّ كثيراً لقلّة ما يقع فى محسوساتها من الاشتباه ، وهو لا يكاد يعرِض إلّا للسمع واللمس ، وذلك كما إذا احتجبت جهة

---

(١) النارنجى : أى لون أحمر كلون الرمان .

(٢) السيمياء : ضرب من الألعاب السحرية ، تحدث فيها مثالات خيالية لا وجود لها فى الحقيقة .

الصوت ، وردَّه الصدى من جهة أخرى ، فإنَّ السامع يتوهمه صادراً من تلك الجهة . ويقرب من هذا ، الإيهام الذى يفعله المتكلم من جوفه ، فيوهم السامع أن المتكلم غيره . وكما إذا وضع الإنسان يده فى مــاء حار ثم غمسها فى ماء فاتر ، فإنه يشعر بذلك الماء بارداً . وإلى مثل هذا السبب ، يرجع ما نجده من برد ماء الينابيع فى الصيف وفتوره فى الشتاء ، مع أن درجة حرارته فى الحالين واحدة. وفى جميع ما ذُكر ، لا بدّ لإدراك حقيقة المحسوس من الاستعانة بحاسَّةٍ أخرى ، أو الرجوع إلى قياس العقل أو التجربة . وعلى كل حال ، فالعقل هو قاضى محكمة الحواس ، و إليه ينتهى الفصل فى كل ما يُعرَض عليه منها ؛ فإذا عُزل عن منصَّته ، أو ضلّ فى حكمه ، لم ينفع بعضَها شَهادةُ بعضٍ ، ولم يُوثَقْ منها بحكم صحيح .

٤ ـــ إبرهيم اليازجى اللغوى

ا ـــ دراسات

اللغة والعصر

كتبه يوم انصرف الأدباء إلى تحصيل ملكة الكتابة العربية الصافية والتضلع من اللغة بحقيقتها ومجازها .

لم يبقَ فى أرباب الأقلام ومنتحلى صناعة الإنشاء ، من هذه الأمّة ، من لم يشعر بما صارت إليه اللغة ، لعهدنا الحاضر ، من التقصير بخدمة أهلها ، والعُقم بحاجات ذويها ، حتى لقد ضاقت مُعجَماتها بمطالب الكتّاب والمعرّبين ، وأصبحت الكتابة فى كثيرٍ من الأغراض ضرباً من شاقّ [1] التكليف ، وباباً

---

(١) الشاق : المتعب .

من أبواب العَنَت . واللغة لا تزداد إلا ضيقاً باتّساع مذاهب الحضارة وتشعُّب طرق التفنن فى المخترعات والمستحدَثات ، إلى أن كادت تُنبَذ [١] فى زوايا الإهمال وتلحق بما سبقها من لغات القرون الخوال . ومسّت الضرورة إلى تدارك ما طرأ عليها من الثُلَم قبل تمام العفاء ، وقبل أن ينادى عليها مؤذّن العصر : سبحان من تفرّد بالبقاء ، و يُختَم على مُعجَماتها بقصائد التأبين والرثاء .

تلك هى اللغة التى طالما وصفها الواصفون بأنها أغزر [٢] الألسنة مادّةً ، وأوسعها تعبيراً ، وأبعدها للأغراض مُتَنَاوَلاً ، وأطوَعُها [٣] للمعانى تصويراً ؛ قد أفضت [٤] اليوم إلى حالٍ لو رام الكاتب فيها أن يصف حجرة منامهِ ، لم يكد يجد فيها ما يكفيهِ هذه المؤونة اليسيرة ، فضلاً عما وراء ذلك من وصف قصور الملوك والكبراء ، ومنازل المترَفين والأغنياء ، وشوارع المدن الغنّاء ، وما ثَمَّ من آنيةٍ وأثاث وملبوسٍ ومفروش ، وغير ذلك من أصناف الماعون وأَدوات الزينة ، مما لا يجد لشىء منهُ اسماً فى هذه اللغة ؛ ولا يكون حظّ العربىّ من وصفه إلاّ العِىّ والحَصَر [٥] ، وطىّ لسانهِ على معانٍ في قلبهِ لا يتسنى لهُ إبرازها بالنطق ، ولا يجد سبيلاً إلى تمثيلها باللفظ ؛ كأنّ المقاطع التى يعبّر بها عن هذه المشخَّصات لم يُخلَق لها موضعٌ بين فكَّيْهِ ؛ وليست مما يجرى بين لهَاتهِ [٦] وشفتيهِ ، فعاد كالأبكم يرى الأشياء ويميّزها ، ولا يستطيع أن يعبّر عنها إلاّ بالإشارة ، ولا يصفها إلاّ بالإيماء .

---

(١) تنبذ : تلفظ ، تترك جانباً .

(٢) أغزر : أوفر .

(٣) أطوعها : ألينها .

(٤) أفضت : صارت .

(٥) الحصر : العى فى النطق وعدم الإفصاح عن المعنى .

(٦) اللهاة : اللحمة المشرفة على الحلق من أعلى الفم .

ويا ليت شعرى ، ما يصنع أحدنا ، لو دخل أحد المعارض الطبيعية أو الصناعية، ورأى ما ثَمَّة من المسمَّيات العُضوية وغير العُضوية ، من أنواع الحيوان وضروب النبات وصنوف المعادن ؛ وعاين [1] ما هناك من الآلات والأدَوات وسائر أجناس المصنوعات ، وما تتألف منه من القِطَع والأجزاء ، بما لها من الهيئات المختلفة ، والمنافع المتباينة ؛ وأراد العبارة عن شىء من هذه المذكورات ؟

ثم ما هو فاعلٌ ، لو أراد الكلام فيما يحدث ، كل يومٍ ، من المخترعات العلمية والصناعية والمكتشفات الطبيعية والكيماوية ، والفنون العقلية واليدوية ، وما لكل ذلك من الأوضاع والحدود والمصطلحات التى لا تغادر جليلاً [2] ولا دقيقاً إلا تدل عليه بلفظه المخصوص ؟

لا ريب أن الكثير من ذلك لا يتحرَّك له به لسان ، ولا يعهد له ، بين أنواح معجمات اللغة ، ألفاظاً يعبِّر بها عنه ، ولا يغنيه فى هذا الموقف ما عنده من ثمانين اسماً للعسل ، ومئتى اسمٍ للخمر ، وخمسمائة للأسد ، وألف لفظة للسيف ، ومثلها للبعير ، وأربعة آلافٍ للداهية ، وما يفوت الحصر لشىءٍ آخر حرص مؤلِّف القاموس على استقصاء ألفاظه ، حتى لم يكد يذكر مادَّةً إلاَّ وفيها شىءٌ يشير إليه ويدلُّ عليه !

على أن اللغة مرآة أحوال الأمّة ، وصورة تمدّنها ، ورسم مجتمعها ، وتمثال أخلاقها وملَكاتها ، وسجلّ ما لها من علوم وصنائع وآداب . وإنما تضع منها على قدر ما تقتضيه حاجاتها فى الخطاب ، وما يتمثل في خواطرها ، أو يقع تحت حسّها من المعانى . ومعلومٌ أن العرب واضعى هذه اللغة ، كانوا قوماً أهل بادية ،

---

(١) عاين : شاهد .

(٢) جليلا : عظيما .

بيوتهم الشعر والأديم [١] ، ومفرشهم البارىّ [٢] والبلاس [٣] ولباسهم الكساء والرداء ، وأثاثهم الرحى والقِدْر ، وآنيتهم القَعْب والجَفنة [٤] ، إلى ما شا كل ذلك مما لا يكادون يَعْدُونه فى حِلّ ولا ترحال . فأين هم ، وما نحن فيه ، لهذا العهد ، من اتساع مذاهب الحضارة ، والاستبحار فى الترَف واليسار ، وكثرة ما بين أيدينا من صنوف المرافق [٥] وأنواع الأثاث والزخارف ؛ وما نحن فيه من التفنن فى أحوال المجتمع والمعاش ، فضلاً عما بلغ إليه أهل هذا العصر من التبسُّط فى مناحى العلم والصناعة ، مما كان أولئك بمعزِلٍ عن جميعه ؛ إلاّ ما حدث بعد ذلك فى عهد استفحال الإسلام مما ذهب عنّا أكثره ، وما كان فيه لو بلغ إلينا إلا غَناءٌ قليل .

ومهما يكن من حال أولئك القوم ، وضيق مُضطرب الحضارة عندهم ، ومانجد فى ألفاظهم من الفاقة والتقصير عن حاجات هذا الزمن ، فلا يتوهمنّ متوهمٌ أن ذلك واردٌ على اللغة من هرمٍ أدركها ، فقعد بها عن مجاراة الأحوال العصرية ، وأناخ بها فى ساقة الألسنة الحاليَّة [٦] فإن معنى الهرم [٧] فى اللغة أن يحدث عند المتكلمين بها معانٍ قد خلت ألفاظها عنها ؛ ثم تضيق أوضاعها عن إحداث [٨] ألفاظ تؤدَّى بها تلك المعانى ، فيطرأ على اللغة النقص ، حيناً بعد حين ،

---

(١) الأديم : الجلد .

(٢) البارى : الحصير المنسوج من القصب .

(٣) البلاس : بساط نسيج من شعر الماعز .

(٤) القعب : القدح الضخم يصنع من الخشب . الجفنة : القصعة الكبيرة .

(٥) المرافق : الأشياء التى ينتفع بها .

(٦) ساقة الألسنة : أى مؤخرة اللغات .

(٧) الهرم : الشيخوخة .

(٨) إحداث : وضع .

إلى أن تعجز عن أداء أغراض أهلها ، ولا تبقى صالحةً للاستعمال ؛ وحينئذٍ فلا يبقى إلاّ أن يُلقى حبلها على غاربها[١] ، أو يستعان بغيرها على سدّ ماعرض فيها من الخلل ، بما يغيّر من ديباجتها ، و ينكّر أسلوب وضعها حتى تتبدل هيئاتها على الزمن ؛ وتصير ، على الجملة ، لغة أخرى .

وليس بمنكَرٍ أن ما وصفناه من هذه الحال يشبه فى بادى الرأى ما نشاهده من حال لغتنا اليوم ، وما لم نزل ننعاه عليها ، منذ حين ، من تقصيرها عن الوفاء بمطالبنا العصرية ، إلا أن ذلك إذا استقريتَ أوجهه وأسبابه ، وسبَرتَ غَوْر اللغة فى نفسها ، وقست مبلغ استعدادها ، علمتَ أنه ليس منها فى شىء ، وأيقنْت أنها لا تزال فى رَيْعان شبابها وطور ترعرُعها ، وأن فيها بقِيَّةً صالحة لأن تجارى أوسع اللغات وأكثرها مادّة ، ولكن ما أدركها من ذلك واردٌ من قِبَل الأمّة ، وتخلُّفها فى حَلبةِ الحضارة والمدنية ؛ إذ اللغة بأهلها تشبّ بشبابهم وتهرم بهرمهم ، و إنما هى عبارة عما يتداولونه بينهم لا تعدُو ألسنتُهم ما فى خواطرهم ، ولا تمثّل ألفاظهم إلا صوَر ما فى أذهانهم . و بدهىّ أن اللغة لم توضع دفعة واحدة ، و إنما كان يوضع منها الشىء بعد الشىء ، على قدر ما تدعو إليه حاجة المتكلمين بها وقد اختصَّت هذه اللغة بمزيَّةٍ عزَّ أن توجد فى غيرها ، وهى أن أكثر ألفاظها مأخوذ بالاشتقاق اللفظىّ أو المعنوى ، بحيث صارت إلى ما صارت إليه من الاتساع الذى لا تكاد تضاهيها فيه لغة ، على كونها من أقلّ اللغات أوضاعاً ، إلا أنها من أكثرهنَّ صيَغاً وأبنية ؛ وهو السر فى قبولها هذا الاتساع العجيب ، فضلاً عما فيها من تشعُّب طرق المجاز .

واعتبرْ ما ذكرناه من ذلك بالرجوع إلى ما كانت عليه اللغة زمن الجاهلية

---

(١) يلقى حبلها على غاربها : أى تترك وشأنها ، تذهب حيث شاءت . والغارب : رقبة الجمل وهو تعبير صحراوى .

وفى صدر الإسلام ، ومقابلتها بما بلغت إليه على عهد الخلفاء من بنى العبّاس ؛ بعد سكون الغارات واستتباب الفتوح ، وتنبُّه الأمّة لطلب العلوم وتبسُّطها فى فنون الحضارة ، بحيث خرجوا بها من حال الخشونة البدوية ، إلى أبعد مذاهب المدنية الشائعة لعهدهم ذاك ؛ لم يكادوا يُدخلون فيها لفظاً أعجمياً[١] ، ولا اضطرُّوا فيها إلى وضعٍ جديد ، ولكنها خدمتهم بنفس أوضاعها التى وضعتها العرب ، فاشتقُّوا منها ما لا عهد به للعرب ، على وجهه الذى نقلوه إليه ، ولم تتكلم به أصلاً ؛ حتى أحاطوا بصناعة الفرس وعلوم اليونان ، وأدخلوا كثيراً من مصطلحات الأمم التى اجتاحوها[٢] شرقاً وغرباً ، وزادوا على ذلك كلّه ما استنبطوه[٣] بأنفسهم . واللغة مشايعةٌ لهم فى كلّ ما أخذوا فيه ، لم تنضب مواردها دونهم ، ولا رأينا من شكا منها عجزاً ولا تقصيراً ، إلى أن أدركهم من تبدُّل الأطوار ، وغارات الأقدار ، ما وقف بهم عند ذلك الحدّ ، فوقفت اللغة عند ما نراه فيما وصل إلينا من كتبهم . وتوالى الاجتياح بعد ذلك على الأمّة ، وتتابعت دواعى الدمار ، حتى اندرست أعلام حضارتها ، وذهبت علومها أدراج الرياح ؛ فزال أكثر اللغة من ألسنتها بزوال معانيها ، حتى صار الموجود منها اليوم لا يقوم بخدمة أمّة متمدنةٍ ، ولا هو أهلٌ لأن يُبلَغ به ما منزلته تلك . ولذلك فإن كان ثمّة هرمٌ فإنما هو فى الأمة لا فى اللغة ، لأن ما عرض لها من الهجر والإهمال غير لاحقٍ بها ، ولا ملحقٍ بها وهناً[٤] ولا عجزاً ، وإنما هو عجزٌ فى ألسنة الأمّة ومداركها ، وتأخرٌ فى أحوالها واستعدادها . ولو صادفت ، من أهلها ، البقاء على عهد أسلافهم من السعى فى سُبُل الحضارة وتوسيع نطاق العلم ، لم تقصِّر عن مشايعتهم

(١) يستثنى من ذلك كتب الطب .
(٢) اجتاحوها : دخلوها بعامل الفتح .
(٣) استنبطوه : اخترعوه بأنفسهم .
(٤) الوهن : الضعف والتعب .

فى كل ما فاتهم من الأطوار ، حتى تبلغ بهم إلى مجاراة العصر الحاضر .

ولقد أتى على اللغة مئات من السنين بعد ذلك ، لم يُزَد فيها حرفٌ ، بل لم يكد يُحفَظ منها ما يزيد على الحوائج البيتية والسوقية . على تناقص هذه الحوائج وتراجع عددها يوماً بعد يوم ، بما طرأ[١] على أهلها من الضغط والفاقة[٢] ، وما اتصل بذلك من استيلاء الجهل وتقلّص العمران وذَهاب الحضارة من بينهم ، حتى عادت حوائج كثيرٍ من أهل المدن الحافلة لا تكاد تتعدَّى حوائج البدوىّ والأكَّار[٣] . وما دامت المعانى التى يعبَّر عنها باللغة معدومة ، فلا سبيل إلى الألفاظ الدالَّة عليها ، إذ اللفظ إنما يُتَّخذ للعبارة عن الخواطر التى فى النفس ، فلا يكون إلاَّ على قدرها بالضرورة . وزاد على ذلك كله ذهابُ ما كتب المتقدمون : بعضه بالإحراق كما تمَّ فى مكتبة قُرطُبة ؛ وكأنَّ هذا فى مقابلة ما وقع من مثلِه بالإسكندرية وفارس[٤] . . . و بعضِه بالاجتياح[٥] والنهب ؛ فلا بقى فى مكانه ينتفع به المتأخر ، ولا احتفظ به الذى نهبه لجهله قيمته . و بقى الشىء اليسيرنجده اليوم فى مكاتب الأعاجم ، وأكثره مما اشتُرى من أيدينا بالذهب ... فلا غرو إن نشأ عن تلك الأحوال كلها ذهابُ هذه اللغة من ألسنة الأعقاب ، حتى لو رام أحدنا إثارة دفائنها وتعهُّدها بالتجديد والإحياء ، لما وجد منها فى البلاد إلَّا الشىء النزر[٦] لا يعدو ، فى الغالب ، علوم الدين وما يتصل بها مما لم يكد أهل بلادنا يحافظون على سواه .

---

(١) طرأ على : أصاب .

(٢) الفاقة : الحاجة والفقر .

(٣) الأكار : الحراث .

(٤) فارس : بلاد إيران « العجم » .

(٥) الاجتياح : فتح الجيوش للبلدان والدخول إليها عنوة .

(٦) النزر : القليل .

ب — فى المفردات والتراكيب

فصل
فى السمع [١]

تقول : سمعت الرجلَ يقولُ كذا ، واستمعتُه ، وسمعتُ كلامه ، وسمعتُ صوته ، وآنستُ صوته ، ووجدت حسَّه ، وسمعتُ له رِكزاً [٢] وسمعت له حسًّا وحسيساً ، وما سمعتُ له حسًّا ولا جَرْساً [٣] وقد سمعتُ كذا ، وقرع سمعى ، ومَرَّ بسمعى ، وورد على سمعى ، ووقع فى سَماعى ، و بلغ مسامعى ، وذلك سمع أُذنى ، وسماع أُذُنى، وهذا كلام ما استكَّ فى مسامعى مثله ، وما سكَّ سمعى مثله، وما استأذن على سمعى مثله ، وتقول سَمْعُ أُذُنى فلاناً يقول كذا ، وَسَمْعُهُ أُذنى كما تقول : رأى عينى وقال ذلك سمع أُذنى ، وسماعُ أُذُنى ، وسمعاً قاله ، أى قاله مسمعاً [٤] وتقول سمعت له ، و إليه ، وأصغيت له ، وأَصختُ له ، وأَرعيته سمعى ، وراعيتُه سمعى ، وأقبلتُ عليه بسمعى ، ورفعتُ له حجابَ سمعى ، وراعيته سمعى وأَلقيتُ إليه السمع . وتقول لمن تحدّثه : سمعك إلىّ ، وسَماعَك إلىَّ ، وسَماعِ كحذارِ ، أى اسمع ، وتقول : تسمَّع فلان إلى حديث القوم ، و إنَّه ليسترق السمع إذا كان يتسمع مختفياً . . . .

---

(١) ننقل هذه المختارات عن كتاب (نجعة الرائد وشرعة الوارد فى المترادف والمتوارد) .

(٢) الركز : الصوت الخفى .

(٣) الجرس : بالفتح والكسر ، الصوت الخفى وقيل هو بالفتح وبكسر مع الحس للازدواج .

(٤) هو من وضع المصدر المجرد موضع المزيد وانتصابه على الحال .

فصل
فى الذوق

تقول: ذقت الطعامَ والشراب ذوقاً وذَواقاً ،وطَعِمتُه طُعماً « بالضم » وتطعَّمته. وفى المثل تطعَّم تَطعَم . أى ذق تشتهِ ، وطعام مرّ المذاق والمذاقة ، ومر الطَّعم « بالفتح » . . . .

وتقول : هذا طعامٌ حلوٌ ، وإنه لصادق الحلاوة ، محضُ الحلاوة ، خالص الحلاوة ، وتمر وعَسل حَمْتٌ وحَميتٌ ، أى شديد الحلاوة . وهو أحلى من المَنّ ، وأحلى من القند[1] وأحلى من الشَّهْد ، وأحلى من الضَرَب[2] ، وإنما هو الشهد المصفَّى ، والسكّر المكرر . . . .

وهذا طعام كَفْن أى لا ملح فيه ، وماء عذب ، وزلال ، وفُرات ، ورُضاب وسلسال ، إذا كان خالصاً لا ملوحة فيه . ويقال رجل حثِر اللِّسان ، كما يقال : حَثِر الأُذن ، أى لا يجد طعم الطعام .

فصل
فى العشق والخلو

يقال : أحب المرأة وهوِيَها ، وَعَشِقها ، وتعشَّقها ، وعَلِقها، وَاعتلقها، وتعلّقها ، وصبا إليها ، وَكَلِفَ بها، وَهام بها، وأُغْرِمَ بها، وَوله بها، وولِعَ بها ووقعت بقلبه، وأخذت بمجامع قلبه ، وَأُشرب قلبُه حبَّها ، وملك حبُّها عنانَه . وهو بها صبّ ،

(١) القند : عسل قصب السكر .

(٢) الضرب : العسل الأبيض .

كَلِف، مغرم، هائم، ومستهام . وهو بها كلِف الفؤاد، كلِف الضُّلوع، عميد[١] القلب . وقد أصْبَتْه المرأة وتصبَّته، واستهوته، ودلّهته[٢] واختبلته[٣] وهيَّمته . . .

فصل
فى الإخبار والاستخبار

يقال أخبرنى فلان كذا، و بكذا، وخبَّرنى وأنبأنى ونبَّأنى، وعرَّفنى وأَعلمنى، وَأَبلغنى كذا، و بلّغنيه، وَحدَّثنى بالخبر، وقصَّه علىَّ، واقتصَّه علىَّ ونقله إلىَّ، وَأَنهاه إلىَّ، وأوصله، وَساقه، ورفعه، ونماه . وَقد بلغنى خبرُ كذا، وَأَتانى، وجاءنى، وورد علىَّ، وانتهى إلىَّ، وتأدَّى إلىَّ . . .

٥ – إبرهيم اليازجى فى رسائله
رسالة إلى صديق

. . . لو أَجبتُ داعىَ الشوق لَمَّا دعا، وكنت لحافز[٤] الذكر طيّعاً، لسلَّمت كلّ خافقةٍ[٥] كتاباً ولحمّلت كلَّ بارقة خطاباً، ولكنِّى أَزجرُ لجاج[٦] الشوق بالصبر، وأقمع سَوْرة[٧] الذكر بالحلم، إلى أن يبدّل الله وجوه الصحائف بصفحات الوجوه،

---

(١) عميد : من قولهم عمده المرض أى فدحه وأثقله .

(٢) دلهته : أذهبت عقله .

(٣) اختبلته : أذهبت عقله .

(٤) الحافز : العاجل .

(٥) الخافقة : نابضة من نبضات القلب .

(٦) اللجاج : الإلحاح وطلب الشىء بشدة .

(٧) السورة : الوثبة، والشدة .

جعل الله موعد اللقاء قريباً، ومتَّعنى بأُنسك وأنت على ما تروم من حسن الحال، ورخاء البال.

رسالة أخرى إلى صديق

... كلّما لجَّ بنا داعى الشوق، وضاقت بنا مسافة الصبر، عمدنا إلى هذه الصحف نسوّدها بشكوى الفراق، ونشحنها بعتاب الدهر، ونطويها على لواعج[١] الصدر، ثمَّ سيَّرناها والشوقُ باقٍ، والشكوى لم تبرح، والذكرى مناط[٢] النسيم كلّما خفق، والبرق كلّما ائتلق والطير كلّما صدح، والروض كلّما نفح، يومٌ يمرّ ويأتى غده، والأمانى تتوقَّع يوماً لا نجده.

شكر

مهما زدتنى من جميلك المألوف، وصنيعك المعروف، فما أَزيدك على ما ينطق به لسان حالى من الاعتراف بتطوّلك[٣] والثناء على تفضّلك، ولا سيّما فيما أبديت من الحفاوة[٤] واللطف فى جانب أخى وأخيك، النازل فى كنف[٥] تدبيرك، الموكول إلى حسن رأيك، وهى يَدٌ لكَ حملت جميلها على عاتقى[٦]، فوق ما أثقلتْه أياديك السابقة، وألطافك السالفة، وإنى لآمل له بمؤازرتك[٧]

(١) لواعج: جمع لاعجة: حرقة واشتعال.

(٢) مناط: اسم لموضع التعليق وقولهم: هو منى مناط الثريا أى فى البعد.

(٣) التطول: التفضل والمنة.

(٤) الحفاوة: الإكرام وحسن الاستقبال.

(٥) الكنف: الجانب.

(٦) العاتق: ما بين الكتفين.

(٧) المؤازرة: المساعدة.

نجحًا لا يعترضه إخفاق مسعى ، وفوزاً لا يصدف عنه طيش رأى . وأسأل الله له السلامة والتوفيق بمنّه وطوله .

نعى

. . . ورد كتابك العزيز وأنا مشتغل من مرض سيّدتى الوالدة بما أذاب العيون أرقاً ، واستطار القلوب قلقاً ، حتّى قضى الله بما تابع الحسرات ، وجدّد العبرات ،فإيّاه أسأل أن يعوّضنى طول بقائك، و يعزّينى بقرب لقائك، بمنّه وكرمه .

عزاء

. . . من علم أن القضاء واقع ، وأن الأعمار رهائن المصارع[1] ، فلم يصحب دهره على غِرّة[2] ، ولم يغتر من الأقدار بفترة ، لم تكبر عليه الرزيئة[3] إذا اغتالت[4] ، ولم يطمئنّ إلى السلامة و إن طالت ، فإن الدهر رقدة وهَبّة ، و إن الليالى كمنة ووثبة ، ومثلك مَن أدرك مبادئ الأمور ومصايرها ، وعرف موارد الحياة ومصادرها . و إنما الموت طورٌ من أطوار الوجود ، وآخر أعمال الحياة فى الموجود ، ولا أزيدك علماً بالكون وشرائعه ، والكائن وطبائعه ، إنما هى ذكرى لمن فجأه الرزء فشغله ، وحلّ بساحته القضاء فأذهله ، وحسبى من التعزية علمى بما عندك من موارد العلم المباح ، ومن التأسية ما تعلمه من حال مخاطبك وهو سائل الجراح . وما أخلقنى بأن أقول : إنّ رزءك هذا قد

---

(١) المصارع : جمع مصرع ، مقتل .

(٢) غرة : غفلة .

(٣) الرزيئة : المصيبة .

(٤) اغتالت : أصابت وأخذت غيلة ، على حين غفلة .

زادنى شجناً على أشجانى ، ونكأ ما تماثل من قرحة أحزانى ، ولكنّى قد صيَّرنى الدهر إلى حال لا تعمل فيها حال ، ولا أُبالى بسلمٍ ولا قتال ، فكأنما إياى عنى أبو الطّيب حيث قال :

رمانى الدَّهْرُ بالأرزاء حتَّى فؤادى فى غشاء من نِبال
فصرتُ إذا أصابتنى سهامٌ تكسَّرتِ النِّصالُ على النِّصال

٦ – إبرهيم اليازجى الوصَّاف

سوريا

وهذه نزعة اجتماعية وطنية يرسلها الشيخ نفثة من صدر متألم على البلاد ويدعو فيها إلى الاتحاد، قال :

سوريا هى القطر الذى كسته الطبيعةُ حلَّة الجمال ، فمزَّقتها يد الإنسان ، وخصَّته بمزايا تفرَّد بها عن المثال ، فعادت عليه بالخسران ، وتباب[1] السكان . جوٌّ صافى الأديم ، لا يكفهرُّ[2] إلّا ليجودَ السّحابُ بالقطر ، ويترقرق ماء العيونِ على حصباء[3] كالدرِّ ، فتتبسَّم الرياضُ فيه عن ثغور الزَّهْر ، وهواء لا يهبُّ إلّا عبقت أردانهُ[4] بشذا العِطْر ، فيبعثُ الحياة هبوبهُ ، ويمازِجُ الأرواحَ طيبُه ، وسهولٌ فسيحة الأطراف ، خصيبة الأكناف[5] ، تتدفّق فى جوانبها الجداول[6]

---

(١) التباب : الهلاك ، البوار .

(٢) اكفهر الجو : أظلم لكثرة السحاب .

(٣) الحصباء : الحصى .

(٤) عبقت أردانه : الردن طرف الكم الواسع . ويريد أن الهواء يتضمخ برائحة الأزهار العطرة .

(٥) الأكناف : جمع الكنف : الجانب .

(٦) الجداول : جمع الجدول ، وهو مجرى الماء الصناعى .

والأنهار،وتنمى فى مناكبها[١] الحدائق الملتفّة الأشجار ، الطيّبة الثمار ، وجبال احتبكت شِعابُها ، وتناوحت[٢] هضابُها[٣] ونشزت[٤] صخورُها وآكامُها ، وكُلِّلَت بالثلج هامُها[٥] ، واخضرَّت سفوحُها ، واخضلّت آجامُها[٦] فكانت معقِلًا للشريدِ ، ومعتصماً للطريد .

هذهسوريَّا التى سبقت فى المدنيّة والحضارة ، واكتظّت بالسُّكّان والعمارة ، وإنما بلغت هذا الشأن العظيم بالزراعة والصّناعة والتجارة . وهى تمتدّ من البحرِ المتوسِّط غرباً ، إلى الفُراتِ والباديةِ شرقاً ، ومِنْ آسيا الصغرى شمالًا ، إلى حدودِ مِصرَ جنوباً ، فتشمل على القطر المعروف من قديم الزمان بأرضِ الموعد ، والأرض المقدَّسةِ .

وقاعدتُها دمشق العريقة[٧] فى الحضارة ، المتقادمة العهدِ فى المدنية ، جنّة الأرضِ المنقطعة النظير ، فى جمال غوطتها ، وحُسن موقعها ، وصفاء مائها ، واعتدال هوائها ، وطيب ثمارها ، ، وكثرة حدائقها . . .

وما عداها من مدن سوريَّا القديمة قد عفاها تقلّب الأحوال ، فلم يبق منها إلّا رسوم وأَطلال ، وقامت على أنقاضها[٨] الآن قرًى حقيرة ، منتشرة فى هاتيك

---

(١) المناكب : جمع المنكب ، ما بين الكتف والظهر .
(٢) تناوحت : تقابلت .
(٣) الهضاب : جمع الهضبة وهى الجبل يعلوه انبساط .
(٤) نشزت : ارتفعت وظهرت .
(٥) هامها : جمع هامة وهى الرأس .
(٦) آجامها : جمع الأجمة وهى الأشجار الكثيرة .
(٧) العريقة : المتأصلة ، القديمة . الحضارة : التمدن .
(٨) الأنقاض : جمع النقض وهوالمتهدم من الأبنية .

الربوع الداثرة[1] يأوى إليها شراذم[2] من بقايا الأُمم الغابرة ، كأنّها لم تبقَ لتشهدَ بما تجنيه الحروبُ من الدَّمار ، وما يحدثه تفريقُ الكلمة من التبابِ والبوار .

٧ – إبرهيم اليازجى الحكيم
حكم مأثورة

تتردد كثير من الحكم فى مقالات الشيخ ومصححاته وكلها تنبئ عن مبادئ قويمة وأخلاق عالية وصفات حميدة وأمثلة تحتذى وهاك بعضها :

« التحدث فى الخسارة ، خسارة أخرى من الوقت » .

« إذا ارتكب الإنسان الرذيلة ولم يعلم به أحد فأقلّ ما عليه أن يخجل من الإنسانية » .

« لا يرتقى المرء في سلّم الكمال حتى يعرف قدر نفسه . عرّفنا الله بأَقدار أنفسنا » .

« مثل بعض السادات ومربو بيهم مثل بعض الناس يصنعون الصنم بأَيديهم ثم يعكفون على عبادته » .

« من أنفق أيامه فى الخير لا يحزن على زوالها ، كمن أنفق أمواله فى اعتقاد العقد » .

« كان يقال فى القديم : قيمة المرء ما يحسنه ، فصار يقال اليوم : قيمة المرء ما يخزنه[3] » .

---

(١) الداثرة : البالية .

(٢) الشراذم : جمع الشرذمة وهى الجماعة القليلة من الناس .

(٣) « المشايخ اليازجيين وأصهارهم » ص ٩٦ .

بعض المراجع

١ — المؤلفات

إبرهيم اليازجى : ديوان العقد .

» : نجعة الرائد وشرعة الوارد فى المترادف والمتوارد .

» : العرف الطيب فى شرح ديوان أبى الطيب .

» : رسائل اليازجى

محمد جميل بيهم : قوافل العروبة ومواكبها .

منصور طنوس الخورى : الحملة الكسروانية .

يوسف الدبس : موجز تاريخ سوريا .

عيسى ميخائيل سابا : العدد ٦ من نوابغ الفكر العربى .

جرجى زيدان : آداب اللغة العربية

» : الفلسفة اللغوية

أنطونيوس شبلى : الشدياق واليازجى .

أنيس الخورى المقدسى : المختارات السائرة .

عيسى إسكندر المعلوف : تاريخ المشايخ اليازجيين وأصهارهم .

حنا الفاخورى : تاريخ الأدب العربى .

٢ — المجلات والنشرات

مجلة الضياء . مجمع المسرات . مجلة النفائس . مجلة المسرة . جريدة الأحوال البيروتية (العدد الصادر فى ١٩ / ١٢ / ١٨٩٣) .

الفهرست

الفصل الأول

عصر إبرهيم اليازجي

الفصل الثاني

إبرهيم اليازجي فى عصره

الفصل الثالث

جوانب إبرهيم اليازجي

الفصل الرابع
منتخبات من آثار إبرهيم اليازجى

تم طبع هذا الكتاب على مطابع
دار المعـــارف
فى شهر نوفمبر (تشرين الثانى) سنة ١٩٥٥